نجران تحت الصفر

يحيى يخلف . رواية



دار الآداب ـ بيروت

يحيى يخلف

نجران تحت الصفر

رواية

دار الآداب – بيروت

الطبعة الثالثة

آذار ١٩٨٠

-١-

أقبل المطوعون ، وطلبة المعهد الديني ، واعضاء جمعية الامر بالمعروف ، وحرس الامير ، والخويان ، وباعة المقلقل ، وسيارات الونيت ، وعدد من مرتزقة (بوطالب) ، وواحد من الزيود . اقبل الغامدي شيخ مشايخ التجار ، وسمية عبدة السديري سابقا وبائعة الفجل حاليا ..

اقبل احمد شاهي ، الطبيب الباكستاني في سيارة الاسعاف ، واطلت من (الدريشة) غالية ابنة السميري قائد قوات الامام .. ومن مطعم الحصري ، خرج (ابو شنان) الذي اطلق سراحه حديثا لانه افطر عامدا متعمدا في رمضان .

ورفع مدير مكتب الاشراف هاتفه ، واتصل بالمدرسة المتوسطة ، فانطلق الصبية عبر شارع الزيود الى الساحة الواسعة ــ التي تتحول ايام الاثنين الى سوق من اسواق العصور الوسطى ــ ، وتقافز الصبية والطلبة فوق اكياس المستكة والبهار والحبهان والمحلب والمروحة والحناء ..

ودفعة واحدة .. صمتت بيوت نجران .. تسلل السكون الى ازقتها ومنعرجاتها ، وملأ فجوات الابواب ، وشقوق النوافذ . احاط الناس بالساحة الواسعة من جميع الجهات ، وصعد الذين ضاقت الساحة عن استيعابهم الى سطوح المنازل التي تبدو كقلاع تنتمي الى عصر ما ..

قال (ابو شنان) وهو يضع المسواك في فمه كالسيجار: (يا ويلي .. اليوم سيذبحون اليامي) . كان احد الزيود الى جانبه يمضغ القات بلا مبالاة ، فيما تقدمت سمية السمراء ، وقالت : انا فدى عيونك يا يامي .. انا فداك . قال احد المطوعين : صل يا ولد .. صل . غصت الساحة بالناس اكثر فاكثر .. غصت بالوجوم والترقب والتوقعات ..

اخرج (ابو شنان) المسواك من فمه ، وتذكر الالم الذي مزق احشاءه عندما شرب زجاجة الكولونيا بعد ان عزت الخمرة . وقال لنفسه ان المرارة التي تملأه في هذه اللحظة اشد الما حتى من ضرب الخناجر المعقوفة ..

شدت سمية احد المطوعين من كتفه ، وقالت بغضب :

(ايش عمل اليامي .. هه .. ايش عمل)

ازاح المطوع يدها ، وقال دون ان ينظر اليها :

(اليامي مخرب .. يتصل بالجمهوريين) .

مسح الغامدي لحيته بباطن كفه بشرود ، وقال كأنما يخاطب نفسه (يستأهل .. كل من يخرج على طاعة السلطان) .

قام احد المشايخ عن الكرسي ، واجلس مكانه الطبيب احمد شاهي الذي ظل عابسا وهو يحمل حقيبته بقرف مؤكدا انه غريب الوجه واليد واللسان .

ظل الزيدي يمضغ القات بشرود ، بينما اصابعه تفرك

الريالات الذهبية في جيب ثوبه الفضفاض ، ويحلم بأصفهان .. امرأة تلهث على صدره ، تسقيه من رضابها .. يشربها مثل زجاجة ويسكي مثلجة في (ابو ارشاش) ...

قالت الخادمة (رباب) القادمة لتوها من صعدة بلدة السميري (صكي الدريشة يا غالية .. ذا الحين يجي السميري ويحصل ما لا تحمد عقباه) .

قال (ابو شنان) ذات يوم بعد ان تعتعه السكر (غالية بنت السميري لها عينان مثل عيني الغزالة التي ارضعت بن ذي يزن) . ثم انه في اليوم التالي دفع عشرين ريالا لرباب لكي تبلغها ذلك ، فضحكت غالية ، وقالت بتهافت (هذا الولد خبل ، ما يعرف الليل من النهار) .

: ـ صكي الدريشة يا غالية ذا الحين .. وي .. وي .. المستر ينظر اليك بالمنظار .. صكي الدريشة يا ابنة الاشراف . كان (ستيفن هايدن) ، او المستر كما يسمونه في نجران ، يقف على ظهر سيارته الروفر ويلتقط صورا بالكاميرا المتحركة .. اغلقت (رباب) النافذة ، وقالت بلا مبالاة : متى يذبحون اليامي ونتهي من شره .

ارتسم غضب هائل على وجه سمية ، فصرخت بصوت مبحوح : ـ

ها .. انت .. ايش تفعل يا ذاك النصراني .

رفع المطوع خيزرانته في وجهها مهددا بشكل جدي ، وقال (اسكتي يا عبدة السوء .. هذا معه امر بالتصوير من الامير طال عمره ..) .

نقل ابو شنان المسواك الى زاوية فمه ، وقال باستفزاز (اسمع يا مطوع .. الشيخ يقول ان التصوير حرام .. كيف يسمح الامير .. كيف) .

تحول المطوع الى (ابو شنان) ورفع عليه خيزرانته :

(ايش تقول يا كافر .. والله لولا الحد الذي سيقام على اليامي لفرشتك على الارض وجلدتك مائة جلدة) .

قال الغامدي يخاطب نفسه (متى ينتهي الامر ، ويكون اليامي عبرة لمن اعتبر) .

ظلت اصابع الزيدي تلعب بالريالات الذهبية في جيبه، وظلت المراة تتسرب الى تلافيف دماغه مع خدر القات ، ودبيب النعاس الصعب . قالت سمية ، تخاطب عددا من الناس حولها : انا اعرفه يا جماعة ، لقد ارضعته من ثديي يوم ان لسعت العقرب امه .. كان اهله يسكنون معنا في الاخدود .. اليامي مظلوم ..

فجأة .. وقف الجالسون ، وتقافز الناس على اكتاف بعضهم البعض ، اشرابت عنق الغامدي ، وفتحت غالية النافذة غير عابئة بكاميرا المستر .. وتملك الزيدي صحو مفاجيء ، وشعر (ابو شنان) بحاجة لجرعة واحدة من اردأ انواع الخمور .

اما سمية فقد اخذ قلبها يفوص .

توقفت سيارة البيك اب الحمراء ، فاحاط بها الجنود، وتقدم رجلان وقفا عند بابها الخلفي ، انحبست الانفاس ، وفجأة انفتح باب السيارة الخلفي عن اليامي .. وجه منحوت من الصخر ، وعينان ثابتتان .. حول الرقبة قيد تتدلى منه سلاسل تتصل بقيود رسغيه وقدميه .. كان الصمت هائلا ، ومثل حجر الطاحون ثقيلا ..

ظل المستر يسلط عدسته على العينين .

تقدم الرجلان ، وامسكا بذراعي اليامي ، انتثر فاصطدمت حلقات السلاسل ببعضها البعض ، ودفعة واحدة انزلاه الى الارض ، فارتطمت قدماه بالتراب ذي الرائحة المحروقة .. جحظت عينا سمية ، وبدا كما لو انها فقدت

النطق .

وفي راس الزيدي اختلط الحابل بالنابل ، والابيض بالاسود ، والغبار بأوامر (بو طالب) ، وخنجر الامام بحذاء الولد الشمري .

دفعه الرجلان ، فمشى اليامي في الساحة ببطء ، ينقل قدميه بصعوبة ترافقه خشخشة السلاسل .

وسط الساحة ، تنفس بعمق ، ثم استدار مواجها العيون الصامتة المأخوذة فبكى (ابو شنان) وتذكر عنترة اذ السهم في خاصرته وهو يتوكأ على رمحه ، ولهيبته تتراجع الجيوش الغازية . وقال لنفسه (الولد اليامي يموت ولا المهانة) .

جاء مندوب الامير ، يرافقه الشيخ ، يرافقهما كاتب المحكمة .. قال مندوب الامير شيئا ، وقال الشيخ شيئا او بعض الشيء ، ثم نشر كاتب المحكمة ورقة طويلة ، واخذ يقرأ بصعوبة .

قالت غالية السميري لرباب : (ذا الحين يطقون راسه) .

اغلقت رباب النافذة ، وقالت (لا تنظري حتى لا يصيبك الخفقان) .

صمتت غالية السميري ، والصقت اذنها بخشب النافذة .. اسرعت رباب ، ووضعت اسطوانة طلال مداح على قرص البيك اب ، فانطلقت يا سارية خبريني عما جرى . وقف الطبيب احمد شاهي ونظر الى اليامي دون ان يفتح حقيبته ، ثم هز راسه لمندوب الامير كما لو انه يخبره بأن كل شيء على ما يرام .

وعند ذلك استبدل المستر الفيلم الذي انتهى بآخر جديد ، واعاد تصويب كاميرته بينما حديد غطاء الروفر يطقطق تحت قدميه .

(والله يا ابو شنان انك تدفع كل عمرك من اجل اليامي، ولكن ما باليد حيلة وغدا لن تجد في الكأس سوى دمعة واحدة تظل تكبر حتى يمتليء الكأس بالنشيج) ..

.... (القات اختمر ، ومن جديد عز النعاس الصعب ، واختلط الحابل بالنابل ، والعويل بحجر المسن ، وصراخ (بو طالب) برضاب اصفهان ، وصحن المقلقل بالعصيدة المرة) .

فجأة ظهر المارد ...

لا احد يعرف من اين وكيف .

لكنه ظهر وسط الساحة .. يلبس سروالا خفيفا ، وصدره العاري يكشف عن عضلات بارزة . ظل قلبها يغوص ، وقالت سمية : هذا هو الجلاد .. وفاضت عيناها بغزارة .

اقترب احد المطاوعة ، وعصب عيني اليامي الذي ظل يحتفظ بتماسكه وان كان لونه قد اخذ يشحب ، بينما قام رجل آخر بفك القيد الذي يحيط برقبته . اشار مندوب الامير فتقدم رجل يحمل سيفا عريض النصل ، وشت انحناءة الرجل بثقله .

هجم المارد على السيف ، حمله بذراعيه ، ثم سحبه من قرابه ، فالتمع النصل اذ لامس اشعة الشمس ، وتوهج ، قال الغامدي لنفسه : هذا السياف عندما يرى الدم سوف يصيبه الهيجان ، وربما يذهب ضحية ذلك الكثير من الخلق .. فلماذا البقاء ؟

امسك المارد بالسيف ، وبدأ يتفحص ثقله ، ثم رفعه ، واخذ يطعن الهواء كما لو انه ينازل عدوا حقيقيا . انحبست الانفاس اكثر فاكثر ، وانكمش اليامي مثل عصفور تنغرز اظافره باسلاك الهاتف .

انتهت الاسطوانة ، فقالت غالية وهي تنظر الى خشب النافذة المغلقة : (عجبا .. ما هذا الصمت) .

اقتربت رباب ، وفتحت النافذة بقدر يسمح لعينيها بالنظر .. وقالت (المارد يقف بانتظار اشارة الامير وبعد لحظات ينفصل رأسه عن جسده) .

واعادت ابنة السميري اسطوانة يا سارية من جديد .. جحظت عينا (ابو شنان) كأنما ذهبت السكرة وجاءت تماما الفكرة . كان الناس حوله ينظرون برعب وخوف .

اشار مندوب الامير بيده ، صار القات مرا كالعلقم ، احس الزيدي ببراغيث عقله تتطاير ، استمرت يا سارية خبريني تدور وتدور ، وانتقل المسواك بعصبية في فم ابو شنان .. رفع المارد سيفه عاليا .. شهقت العيون .. انكمش العصفور برعب كأنما هبت موجة عاتية لاقتلاعه فاستماتت اظافره في اسلاك الهاتف ..

هوى السيف ، فاختلط الحابل بالنابل ، والاسمر بالاحمر ، والبارد بالساخن ، شخب الدم ، ولكن لم يتدحرج الراس . اغمض مندوب الامير عينيه ، وارتسم فزع لا يطاق على وجه احمد شاهي ..

لقد اصاب نصل السيف اعلى الكتف .. صرخ اليامي من اعماق جمجمته بصوت مثل صرير الاسنان .. وبدا مثل ديك ذبحوا منه الوريد فهاجت حلاوة روحه ، وانطلق يبحث عن عراء ...

قفز في الهواء ، فشدته القيود والسلاسل ، ارتمى على الارض يرتعش مثل جناح الديك في اخر انفاسه ..

هاج المارد مثل موجة عاتية ..

شدد الحراس من تماسكهم حول الحلقة ، ومنعوا الناس من التدافع .. هتف ابو شنان بكل ما في اعماقه من

قهر : انا فدى عيونك يا يامي .. انا فداك .

انتفخت عروق المارد واوداجه وفتحتا انفه وهو ينظر الى الجثة .. ودفعة واحدة ، رفع السيف عاليا ، واهوي به على الرقبـــة .. فاختلط الحابل بالنابـــل ، والمحسوس بالمجرد ، والاحمر بالتراب ، والزيدي بحذاء الامام ، والمستر بطلال مداح ، وابو شنان بغضب الرب ...

-٢-

العسس يذرعون الشارع ويتبخترون امام عربات الباعة، محلات عديدة مغلقة وثمة عمال من البلدية يشعلون الفوانيس المعلقة عند المنعطفات .

اولاد الحصري اغلقوا مطعمهم ، والمستر يشتري رز ابو بنادق من دكان الغامدي ، والمطاوعة الذين خرجوا من صلاة العشاء يقضمون اطراف المساويك باسنانهم ، ورافت العدني ، بائع الفلافل ، اطفأ البريموس ، وجلس امام دكانه مطرقا بلا حراك ..

وثمة رائحة لمحروقات فضلات معسكر الحرس الوطني، تختلط برائحة دخان الشيشة في مقهى (ابو رمش) ...

(زفر ابو شنان) .. كان يشعر بثقل يجثم في صدره، ويتسرب مع جرعات الشاهي الاسود الى عروقه ، اتكأ على المقعد الذي يشبه الاريكة ، وتناول مبسم الشيشة واخذ يقرقر .. يا بوشنان لن يملأ راسك سوى سطل .. سطل من عرق البصرة . شهر كامل مر على ذبح اليامي ، وكل

شيء يعود الى طبيعته .. يتبادل الناس اماكنهم في مقهى (ابو .. رمش) ، ويظل (ابن عناق) يحمل صواني الشاهي المنعنع ، والنراجيل الى الزبائن .. وتأكل نسمـات منتصف الليل العيون .. وينام الرجال الى جانب نسائهم والعسس لا يناموت ... ومن المذياع بدأ ابو بكر سالم بالفقية يشدو باغنية يا دوب مرت علي .. اربع وعشرين ساعة .. ضاع الهوى يا خسارة .. ضاع ..

هز (ابو شنان) راسه ، وازاح المبسم عن فمه ..

ــ مرحب يا ابو شنان ..

دخل الزيدي يمضغ ولا يتوقف عـن المضغ ، ودون ان ينتظر الجواب جلس على منتصف الاريكة ، وصفق بيديه...

اقبل (ابن عناق) بوجهه الاصفر ، فنهره الزيدي ، ثم قال وهو يفرك الريالات الذهبية في جيبه :

ــ هات لنا ابريق شاهي يا ولد .

انحنى (ابن عناق) كما لو انـه سيقبل الارض بـين يديه ، ثم انصرف .. رسم ابو شنان ابتسامة على شفتيه وقال :

ــ اسمع يا زيدي .. هذا الولد انحنى للقروش التـي تملأ جيوبك .. غدا اذا انتهت الحرب ، لن تجد من يقدم لك كوب ماء .

بصق الزيدي ما في فمه ، ثم اخرج من جيبه مضغـة جديدة ، دسها في فكه الايمن ، وحك راسه قليلا .. ثـم قال وهو يتربع على الاريكة :

ــ اذا لم يربح الامام فاننا نجمهر مع الجمهورية .

ضحك ابو شنان ، ثم تذكر شيئا ، فعبس وقال :

ــ تجمهر .. فلماذا اذن دفع اليامي حياته لانه جمهر ؟.

لم يجب الزيدي .. وجاء (ابن عناق) بصينية الشاي وانتهى ابو بكر سالم من يا دوب مرت علـي ... وقرقرت

النرجيلة بكسل ، وشعر ابو شنان بطعم الشيشة كالعلقم .. وعبر نافذة المقهى يتبختر العسس، واحدهم يحمل على كتفه آلة تسجيل ، ويتلثم بالغترة ، والفوانيس شحيحة الضوء .. والزيدي بدأ يغيب ، وابو شنان يتكلم ولا من مجيب ، ويصب الزيدي الشاي في الاستكانة كما لو انه منوم ، ثم ينتابه صحو مفاجيء ، وترتسم على ملامحه فرحة طفولية .. يحدق بدخان سيجارة ما .. ومن خلال الدخان تبدو اصفهان المرأة .. جسدها سمين ومكتنز .. تخلع ملابسها قطعة قطعة .. رضابها كمحتوى زجاجة الفارسي .. يشربها قطرة فقطرة .. ويتركها تسيل من بين شفتيه ، وعلى رقبته، وتغيب في شعر صدره الكثيف ...

★ ★ ★

خرج ابو شنان وهو يشعل سيجارة (بوبس) .. كان العسس قد اصابهم السأم .. والمحلات مغلقة ، وليس ثمة سوى بعض القطط والكلاب تجوس بلا مبالاة ، واضواء الفوانيس تكاد تضمحل وتشي بنفاد النفط منها ...

شاهدها فجأة .. استيقظ ابو شنان اذ شاهدها . كانت سمية تقف وسط الساحة دون ان يتنبه اليها العسس ...

اقبل عليها بلهفة ، واذ وصل تناول يدها وقبلها ..

ـ ماذا تفعلين هنا يا اماه ؟

كانت عيناها تفيضان بالدمع ..

ـ ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة المتأخرة ؟

كان ذهنها منفيا ..

ـ اماه ...

توكأت على كتفه ، وظل ينظر الى وجهها الاسمر

باشفاق ...

ــ يا بو شنان جئت ابحث عنه بعد ان رأيته في منامي .

قادها والحزن يعتصره، كان يعرف انها تتحدث عن اليامي .. مشت خطوات .. ثم توقفت :

ــ رأيته في منامي .. كان يلبس ثوبا ابيض .. وكان في هيئة شيخ جليل ذي لحية بيضاء مسترسلة ..

قال بقلق :

ــ ذا الحين يا اماه يرانا العسس، وقد يحدث ما لا تحمد عقباه .

مشت الى جانبه .. صمتت .. ظلت الكلاب الهزيلة تحوم حولهما بلا اكتراث ، وكانت المباني العالية سوداء وبلا قلب .. دخلا في زقاق فرعي ، القى ابو شنان بعقب سيجارته ..

: ــ لقد وعدني عندما رأيته ان يقابلني كل ليلة في الساحة .. في المكان نفسه الذي ..

خفت صوتها وبدأت تنتحب ، ثم تكتم نحيبها ..

ربت على كتفها ، كانا يمران امام بيت السميري الذي يشع بالانوار ، وكانت سيارة (بوطالب) تصطف عند الباب، بينما يقف الى جانبها حارسان يحمل كل منهما (برتا) ذات سونكي ..

التفت (ابو شنان) خلفه ، فانتهره احد الحارسين ... ظلت سمية تنتحب بصوت مكبوت .. وعندما ظهر الخلاء ، هبت نسمات رطبة ، قالت سمية كأنها تحدث نفسها : «لو انه يفي بوعده .. ويجيء .. يا ويلي .. يا ويلي . »

كانا يخوضان في الظلمة ، ومن بعيد اطلت بيوت حارة العبيد ومن خلفها ذوائب غابة النخيل .. وصلا الكوخ المصنوع من سعف النخيل ، فقالت له :

ــ ادخل يا بو شنان .. ادخل يا ولدي .

اطرق ابو شنان قليلا ، ثم قال :

ـ ساعود يا اماه .

اشعلت السراج ، فظهرت الاخاديد في وجهها الاسمر :

ـ ادخل يا ولدي .. تتعشى ، وغدا اغسل ثيابك .

دخل واستلقى على الخرقة المحشوة بالتبن ، ومن فجوة بالجدار كان يشاهد أناسا يتحلقون حول نار تشتعل بهدوء..

ـ اصنع لك شاهي يا بوشنان ..

ـ ما ابغي ...

وبعد لحظات من الصمت ، قال :

ـ يا اماه .. ارى اناسا يتحلقون حول النار ..

هزت راسها وقالت :

ـ انهم يحتفلون بعرس ابن امينة ...

اغمض عينيه . يعرف ابو شنان انهم يحتفلون بصمت حدادا على اليامي ، اما في زمن الفرح فان ضاربي الطبول يصبحون كالعفاريت ، والولد عبد المعطي يغني دان دان .. ويردد وراءه الجميع .. دان دان ...

ويقف احد العبيد ، يرقص رقصة للفرح .. وثانية النخيل .. وثالثة للحرب ، فيكتسي وجهه بلون ناري، واما الرمح في يده فانه يطعن به الفضاء بلا هوادة ...

-٣-

كبير المطاوعة يمشي في الشارع منكس الراس ، لحيته المطبوعة بالحناء لم يشذبها هذا الصباح ، كما انه لم يكحل عينيه كالمعتاد .

ينظر الناس اليه كما لو انهم يشاهدونه لاول مرة .

الغامدي حدق به وتغامز مع كاتب المحكمة ، ثم ضحكا. والزيدي حين رآه تثاءبت اصفهان بكسل . وباعة المقلقل تركوا ما بأيديهم ، وقاسته اعينهم من اسفل الى اعلى ومن اعلى الى اسفل .

شعر كبير المطاوعة بالعري ، احس ان الناس تحدق بلحمه .. بعورته .. بقفاه .. وحين هز الخيزرانه ، شعر بثقل في يده .. تراخى كل شيء فيه : وحين هتف :

ـ صل يا ولد صل ..

خرجت الكلمات شاحبة كالفحيح ، ولذلك سار كبير المطاوعة وهو لا يرى الفضاء .. وكان يتمنى لو ان الارض تنشق وتبتلعه .

اقبل ابو شنان ضاحكا ودخل دكان رافت العدنـــي الذي كان يمسك القالب النحاسي المملوء بالحمص المجروش، بينما اقراص الفلافل تتحمر وسط وجاق الزيت .

ـ تضحك على غير العادة يا ابو شنان .

قال رافت ، فأجابه ابو شنان :

ـ ألم تشاهد كبير المطاوعة ؟

هز رأفت راسه : بلى .. شاهدته .

ـ الم تسمع بما جرى لزوجته ؟ ـ

نفى رأفت براسه ...

ـ : كيف .. كل الناس يعرفون .. حتى باعة المقلقل .

مسح رافت يده بقطعة قماش ، وبدأ يصغي بانتبـاه .

استمر ابو شنان يقول :

ـ قـام بختانها فاصابها نزيف وقـد شاهـد الطبيب الباكستاني فرجها ..

ثم قهقه ابو شنان .. وتابع :

ـ وبسبب ذلك فان الناس عرفوا ان كبير المطاوعة عنين مثل واحد من الخصيان لا يستطيع مضاجعة امرأة ..

وقف بالباب احد المسلحين وهتف :

ـ يا ابو شنان .. بو طالب يريدك .

قال له ابو شنان :

ـ ايش يريد بو طالب .؟

قال المسلح الذي لا ينتعل شيئا في قدميه :

ـ لا ادري .

هز ابو شنان راسه .

ـ حسنا .. سوف اراه .

انصرف المسلح فقال ابو شنان هامسا :

ـ انهم يريدون المزيد من الرجال ، يقولون ان بوطـالب يعد حملة لمهاجمة صعدة والاستيلاء عليها .

فعض رافت شفته السفلى ، محذرا وعاد الى اقراص الفلافل وهو يقول ، كأنما يتحدث مع نفسه :

ــ اصمت .. الحيطان لها آذان .

★ ★ ★

في مقهى (ابو رمش) كان العسس يتثاءبون ويشربون الشاهي دون ان يتمكن (ابن عناق) من تحصيل الثمن، وكان الحر شديدا ، والعرق يتفصد من الوجوه ويسيل حتى الرقبة .

قال ابو شنان : متى يصبح عندك مروحة يا بن عناق مثل مقاهي جدة ؟

ضحك ابن عناق الذي يبدو كما لو انه طفل كبير لا ينمو: يا بو شنان انتظر حتى يصبح في نجران (كهرب) ..

جفف ابو شنان العرق عن رقبته ، وانتهره :

ــ ايش تقول يا رجال .. في المقاهي المحترمة هناك مولدات (كهرب) تعمل على الزيت .

التفت ابن عناق حوله بحذر ثم اقترب وهمس :

ــ يا بو شنان .. مولدات الكهرباء لا يشتريها الا الامير (طال عمره) وقائد الشرطة ، ومدير مكتب الاشراف .. اما الفقراء من أمثالنا فعليهم ان يستعملوا المنشّات ..

ضحك ابو شنان ، فيما انصرف ابن عناق الى اباريقه وهو يدندن (بس قلي كلمتين ..) .. اخرج صندوق سجائره ، فوجده فارغا وتذكر في تلك اللحظة ان جيبه فارغة تماما ، وعاوده الاحساس بالظمأ .

واذ ذاك دخل الزيدي بملابسه الزاهية ، وقد بدا منتشيا ومضغة القات تنتقل بين فكيه ... جلس على الاريكة ، ثم صفق بيديه وصاح بصوت عال :

ـ هات لنا بيبسي يا ولد .

ثم التفت ورمق ابو شنان قائلا :

ـ يا بوشنان .. كنت في مكتب بوطالب .. انه يبغي يشوفك .

كان عدد من النراجيل يقرقر وكان ثمة ذبابة كبيرة تئز عند اذن الزيدي دون ان يعيرها التفاتا ..

ـ ايش يبغي بو طالب .. هه .. ماذا يريد ؟

احضر الولد (ابن عناق) زجاجة كولا تناولها الزيدي وملأ فمه منها ، فارتسم على ملامحه الامتعاض ، ثم بصقها وشتم بصوت عال :

ـ هذه بيبسي ام بول حمير يا ابن الفاعلة ؟..

طأطأ ابن عناق راسه وهمس لنفسه : اللقمة صارت معجونة بالزفت ...

تفو على الحظ حقي .

ـ خذ .. هات لي شاهي .. وشيشة ...

استدار منصرفا فقال ابو شنان :

ـ يا زيدي حرام عليك .. هذا ولد غلبان .

اغمض الزيدي عينيه . وكان يبدو انه يبذل جهدا ليستعيد حالة الانبساط التي كان يتزمل بها ، وكأنما شعر ابو شنان بقدرته على ان يساعده .. فهتف :

ـ يا زيدي .. قل لي .. ماذا فعلت في شيراز في حارة البغايا ؟. .

فتح الزيدي عينيه ، ثم ابتسم بارتخاء ، وعاد ينقل المضغة من فك الى آخر .. وتذكر ابو شنان اذ ذاك حلقه الناشف فهتف بتوسل :

ـ يا زيدي .. لم اشرب خمرة منذ اسبوع .. ابغي اسكر .. ابغي اسكر حتى الموت . كان يبدو بوضوح ان الزيدي بدأ يحلق وترق منه الاحاسيس ويغيب ..

يغيب ..

ـ يا زيدي ابغي اسكر واموت ، ويحمل جنازتي عشرة من الرجال السكارى ...

غير ان الزيدي .. غاب .. ابحر .. تلاشى ...

فدفن ابو شنان راسه بين يديه ، وحين رفع راسه شاهد المسلح ينزل عن (الدباب) ويقف بباب المقهى ، ثم يرفع يده صائحا :

ـ يا بوشنان ... بو طالب يريدك .

ثم يقترب ... وكأنما يريد ان يبكي :

ـ يا بوشنان ... يرحم اهلك .. اذا لم تأت فسوف يضربني بوطالب .. ارجوك .. ارجوك ..

-٤-

امام مكتب بو طالب يصطف عدد من المسلحين ينتظرون استلام رواتبهم ، وبعض الوجهاء الذين يتميزون عن سواهم من اليمانيين الموالين للامام بنظارات (البيرسول) يدخلون البناء الذي يشبه القصر ويخرجون ، ويفسح المسلحون لهم الطريق ...

وعند الباب الخلفي المنزوي يتكوم عدد من ذوي العاهات دون ان يتلفت اليهم احد ..

وقف ابو شنان امام باب (المفوضية المتوكلية اليمانية) .. ثم بصق ومسح فمه بطرف كمه ، فنهره الحارس :

ــ ايش تبغي يا ولد ...

تنحنح ابو شنان وشد قامته وقال باعتداد :

ــ انت ما تعرفني .. انا ابو شنان ..

وقال الحارس الذي يلبس وزرة حول وسطه تكشف عن ساقيه الرفيعتين :

ــ ايش يعني ابو شنان .. من تريد ؟

عبس ابو شنان وقال وهو يمنع نفسه من الغضب :

ـ بو طالب طال عمره ارسل في طلبي .

هز الحارس راسه وقال :

ـ ادخل ....

وسط الساحة كانت تتكوم صناديق الاسلحة والذخيرة، ، وكان ثلاثة رجال ينظفون مدفع هاون ، بينما اقترب منه رجل تتدلى على كتفيه امشاط الرصاص .. وسأله وهو ينظر بشك : ماذا تريد ؟

شد ابو شنان الجاكيتة فوق جلبابه وقال بصوت جاف :

ـ اريد بو طالب ، انا ابوشنان ..

هز الرجل رأسه وسار امامه قائلا : اتبعني ...

مشى في الممر الطويل ، ثم انعطف حتى وصل قاعة واسعة فتوقف قائلا : انتظر ..

دخل القاعة ثم خرج ، واشار له بالدخول ، دخل ابو شنان .

قاعة واسعة .. مكتب كبير خلفه صورة مكبرة للامام .

على الاطراف تصطف مقاعد وثيرة .

جلس . احس بجسمه يغوص في المقعد المريح .

مرت فترة طويلة قبل ان يدخل بوطالب ، طويل وممتلىء ... يلبس بزة عسكرية وتغيب قدماه في حذاء ذي رقبة طويلة ، وحول وجهه السمين تنبت لحية كثيفة .

وقف ابو شنان كالمأخوذ .

ظلت ملامح بوطالب تتسم بالقسوة وسأله دون‌ان يشير له بالجلوس :

ـ انت ابو شنان .

احس بالكلمات تخرج من فمه بصعوبة .

ـ نعم انا ابو شنان .

استدار بوطالب وجلس على مكتبه ثم حدق به وسأل فجأة :

ـ انت صديق اليامي .

احس ابو شنان كما لو انه سيهوي من عل ، فتلعثمت الكلمات على شفتيه وهز رأسه بالايجاب .. سحب بوطالب مسدس براشوت من درجه وقال وهو يمسحه :

ـ انت تسكر وتفعل السبع الموبقات .

شد ابو شنان ساقيه اللتين كادتا تخذلانه وقال متصنعا الجراة :

ـ انا اسكر .. ولكن لا افعل غير ذلك من الموبقات .

رسم بو طالب ابتسامة ، واشار له بالجلوس .. جلس وبدأ يتسلل اليه شيء من الطمأنينة .. حسنا .. يا بوشنان عليك ان تظل شجاعا حتى في احلك الظروف .

اعاد بو طالب المسدس الى درجه ، وقال :

ـ انت تعرف الانجليزية .. قيل لي انك عملت في الدمام في الارامكو .

هز راسه بالايجاب فعاد بو طالب يسأله :

ـ لماذا تركت عملك هناك ؟

عبس ولم يجب فتابع بو طالب :

ـ لا حاجة بك للكلام .. اعرف انهم طردوك لانك شاركت العمال في الاضراب ..

ظل ابو شنان صامتا .. وظل بو طالب يتكلم ..

ـ وبعدها عدت الى نجران ..

ـ ....

ـ وبدات تشرب الويسكي المهربة من عدن ..

ـ ....

ـ وادمنت وخسرت كل ما ادخرته ...

ـ ....

ـ وبعد ذلك اصبحت متسكعا مثل الكلاب الضالة ...

تشنجت كل عضلة في جسده .. واحس بانه يرتطم بالارض ، وقف بوطالب .. واقترب منه .

ـ لا احد يثق بك في نجران .. وحارة العبيد لن تطعمك الا الجوع .

شعر بالدموع تنبجس من عينيه واحس بالانكماش . مرت لحظات طويلة من الصمت ثم ابتسم بو طالب وقال :

ـ لدينا وظيفة شاغرة لك .. انها فرصتك الاخيرة .

تساقط النشيج في داخله .. تساقط كالامطار والغربة .

ـ وعليك ان تعلم يا بوشنان ان من يخرج عن طاعتنا او يبوح باسرارنا نذبحه ونجعله طعاما للضواري .

ظل ابو شنان يطأطىء رأسه .

ـ تأتي غدا وتقابل المستر .. المستر سيشرح لك تفاصيل عملك ...

ـ ....

ـ والان تستطيع ان تنصرف .

وقف ابو شنان ... وعندما تحرك كان يشعر كما لو ان اطنانا من الحديد مشدودة الى قدميه .

★ ★ ★

حارة العبيد .. نسمات باردة وذوائب النخيل تلوح باذرعها ، وهنا حبات الرمل تحفظ عن ظهر قلب خطوات اليامي . كان يتمدد في المساء على الرمل تحت النخلة يمسك حفنة من الرمل في قبضته ، ويقول لك يا بو شنان يجب ان نخرج من عصر الانحطاط ، يجب ان نناضل من

اجل العبيد والفقراء .

وكانت سمية تحضر لكما ابريق الشاهي وتجلس تفتح لكما البخت والطالع .

وكان اليامي يبتسم وينحني على شعرها الاشيب فيقبله ، ويستمر بالحماس نفسه .

ــ يا امنا سمية .. يجب ان يفيق العبيد من سباتهم .

وحارة العبيد منذ ان ذبح اليامي يلفها الصمت ويسكنها فزع لا يطاق . الرمال حنونة .. ذوائب النخيل حنونة .. قلب سمية حنون .. عيناها حنونتان ... وجهها الاسمر ذو التجاعيد حنون للغاية .. الرمال .. الصمت .. الظلمة .. الحزن .. القهر .. الغضب .. وانت يا بوشنان وحيد، وابو طالب يقهقه شامتا ، وحارة الزيود كريهة ، والدنيا ملعونة سبع لعنات .. ومن غيرك يا اماه يستطيع ان يترك اي في قلبه متسعا ؟

طرق الباب ... فجاء صوتها :

ــ ادخل يا بوشنان .. ادخل يا بني .

ــ وجهك اصفر يا بو شنان .

ــ مريض يا اماه .

ــ مم تشكو يا بوشنان ؟

ــ من جرح في الاعماق يا اماه .

ــ هل اصنع لك الشاهي ؟

ــ فمي مر يا اماه .

ــ هل انت ثمل يا بوشنان ؟

ــ ليتني اجد قطرة واحدة يا اماه .

ــ تمدد واسترح .

ــ ليتني استطيع .. ليتني يا اماه .

-٥-

توقفت سيارة (الروفر) قربه ، ومن وراء نظارته قال المستر :

ـ اطلع ...

حك (ابو شنان) ذقنه غير الحليقة وفكر قليلا ، ثم صعد .

انطلقت السيارة عبر الشارع الرئيسي وتخطت معسكر الحرس الوطني ، ثم توقفت امام بيت كبير منزو .

ـ انزل ...

نزل ابو شنان . اغلق المستر باب السيارة ومشى ، فمشى ابو شنان وراءه يتعثر بثوبه الفضفاض كأنه معصوب العينين ...

طرق المستر الباب .. فتح خادم يماني .. دخل .. دخل وراءه .. وجد نفسه في صالة ارضها مكسوة بالسجاد وجدرانها بصور نساء عرايا . تلفت المستر وقال :

ـ اجلس .

جلس على اريكة مغطاة بالمخمل الاحمر فقال له :
ــ هل تشرب كأسا ؟
ادهشته المشاهد وقبل ان يجيب نادى المستر على الخادم .
ــ هات لنا زجاجة ويسكي يا منصور .
غاب الخادم قليلا ثم عاد وهو يحمل زجاجة تغيب في دورق مملوء بالثلج ... صب المستر الويسكي في الكأس.. احس ابو شنان بلعابه يسيل .. وسريعا امتدت يده الى الكأس فادارها في رأسه دفعة واحدة .
ابتسم المستر ، ثم ضحك ، وقال وهو يقهقه :
ــ اشرب .. اشرب ..
ادار الكأس الثانية في راسه ، وتراقصت صور النساء العرايا على الجدران ، وبدات الاشياء تزهو والغبش يروح..
صب له كأسا ثالثة ، وبعد ذلك قال المستر :
ــ جميل جميل .. هذا جميل جدا .. لقد اخبرني بوطالب انك تشرب تمام .
بعد الكأس الرابعة نادى المستر على الخادم :
ــ يا منصور .. شغل لنا السينما .. نريد مشاهدة الفيلم الذي وصلنا منذ يومين .
احنى الخادم رأسه ، واسرع الى الستائر فأسدلها واصبحت الصالة معتمة .
بعد الكأس الخامسة بدأ عرض الفيلم ..
كان ابو شنان يشعر بنشوة ليس لها مثيل ، للوهلة الاولى حدق بالشاشة باهتمام .. كانت هنالك امراة تتعرى ... تخلع ملابسها قطعة قطعة . تستلقي على السرير .. تفتح فخذيها .. يقترب كلب اسود .. يلهث .. يمد لسانه الطويل .. يشم ابطها .. يلحس جلدها .. و .. ترتجف .. تتشنج ..

يضرب ابو شنان يده بالحائط يشعر بالمسام فــي جلده تتسع .. يشعر بالرغبة تكتسح السطح الراكد من جسده .

ـ اصبر .. اصبر يا بوشنان .. سترى اشياء اجمل.

شرب ما في الكأس وعاد يحدق بالشاشة .. دخلـت امراة اخرى فابعدت الكلب وطردته خارج الغرفة .. واقتادت المرأة الى الحمام وبدأت تدلك جسدها بالصابون .. ثـم جففت جسدها بمنشفة كبيرة .. وعادت بها الى الغرفة .. القت بها على السرير .. وبدأت تتعرى بدورها .. وعندما اصبحت عارية تمامـا استلقت الـى جانب صاحبتهـا .. وبدأت تعانقها . كان ابو شنان يشعر كأن في داخلـه ثورا هائجا .. وكان وجهه ممتقعا .. ممتقعا للغاية . واذ ذاك ، ابتسم المستر ، ثم ضحك .. ثم قهقه وقال :

ـ يا بو شنان .. هل تريد امرأة ام ..؟

احس ابو شنان كما لو ان الثور قد نفذ صبره فقال وهو لا يصدق :

ـ اريد امرأة .

فاجابه المستر :

ـ اتبعني ..

مشى ، فمشى وراءه ، وتوقف المستر عند غرفة داخلية وطرق بابها ثم فتحه وقال :

ـ تفضل ..

دخـل ابو شنان فوقـع بصره على امراة تتمـدد على السرير ، بهت ابو شنان ، فقال بالوجه المتقع الضاري :

ـ انها المرأة التي شاهدناها في الفيلم .

هز المستر راسه وابتسم وهمس :

ـ انها قادمة من المانيا .. كن لطيفا معها .

اخيرا وبعد الشبع والارتواء ، تمدد ابو شنـان عـلى الاريكة .. وكانت زجاجة تتدحرج على السجادة ، والمرأة

الشقراء دخلت تستحم ، والمستر يلبس ثوبا عربيا ويشعل غليونه فتعبق الغرفة برائحة التبغ .

ـ هل نتحدث بالعربية ام بالانكليزية ؟

سأل المستر ، وكان ابو شنان يغالب النعاس وثقل في جفونه ..

(بفتور) : كما تشاء انت .

المستر (وهو ينفث المزيد من دخان التبغ) : نتكلم بالعربي .

(تنحنح) واستمر في الحديث : سيكون عملك في (ابو ارشاش) .. تعرف ان هناك معسكرا للمقاتلين الاجانب ... انت العربي الوحيد الذي سيدخله ، ستكون ضابط ارتباط ، وتقوم بالترجمة وترتيب بعض الامور .

واخذ المستر نفسا من الغليون ، وفي تلك اللحظة عادت المراة الشقراء وهي تلف جسمها في منشفة بيضاء تسبقها رائحة عطر نفاذ ، فقال المستر مشيرا اليها :

ـ ريتا ستكون معك .. ستقوم بطباعة التقارير والمراسلات .

تملك (ابو شنان) الصحو .. وبدأ الثور يستيقظ فيه، ثم وقف المستر وذرع الصالة .. ثم تلفت وقال :

ـ طبعا آن الاوان لكي تهجر هذه الملابس غير العملية ، سوف تنتقي لك ريتا بعض الملابس الافرنجية من خزانتي .

وبعد ذلك صاح بالخادم :

ـ يا منصور ... ويسكي .

-٦-

شاع الخبر كاللطمة في حارة العبيد .

كف الولد عبد المعطي عن الدندنة ، وبهت ابن امينة الذي تزوج منذ اسبوع من فاطمة التـــي لم يعتق السديري امها بعد .

وتوقف الرجال في حقول القضب عن العمل ، وحلف احدهم وهو يشير بيده المتشققة الى السماء انـــه شاهد (ابو شنان) بالبنتلون والقميص في سيارة الروفر وبجانبه حرمة راسها مكشوف ، واخر ويعلم الله انه من اخوال اليامي ، همس لبعض الشبان، ان رافتالعدني ـ بائع الفلافل، أسر له بان لا يحكـــي شيئا امام ابوشنان لانـــه صار يعمـــل مع بوطالب ، مثله مثل العسس .. واكثر .

★ ★ ★

ازاحت الغطاء عن راسها ، وحلت جدائلـــها ، ونشرت

شعرها المطرز بالشيب ، وبدأت تنوح .

لم يقترب احد من كوخها ، وعندما جاء المساء لم يشعل احد سراجا .

وفي تلك الليلة لم يقطف احد القضب والفجل والطماطم من الحقول .

وظلت الخفافيش تتعربش في ذوائب اشجار النخيل ، وبنات آوى والضباع ، والهوام تدب على الرمال وتجوس حول الاكواخ المتطرفة .

وقد همس (ابن امينة) الى فاطمة في آخر الليل ان سمية ستميت نفسها ، وان حزنها هذه الليلة صعب ، واصعب من اي وقت مضى .

★ ★ ★

حدق عبد المعطي طويلا بالسقف الذي تعيث به الفئران فسادا ، ثم زفر بحرقة ، سعل ابوه الذي انتفخ بطنه منذ عام ، ولم يشف ، وظل ينتفخ ببطء ، وظلت تخرج منه ريح قاتلة طيلة الليل .

سعل سعالا حادا وقال بصوت متحشرج :

ـ نواحها يذيب الحجر .. سمية الحنونة تبكي فتنفطر القلوب .

وقد اعتاد عبد المعطي ان يهمل ما يقوله هذا الرجل المريض الذي لا يريد ان يموت ، غير انه تلفت اليه باحساس لم يشعر به منذ فترة طويلة ، وتذكر ان هذا الرجل كان وسيما في يوم من الايام ، وكان صوته حلوا كالسكر ، وفي حارة العبيد كان نجم العرضة النجدية ورقصة الطبول .

ـ نواحها ينحدر من ليالي الجوع ، ووقع السياط المالحة . امتلأت عينا عبد المعطي بالدموع ، وامتدت يده

وتناولت كف الرجل المريض ولثمها .

★ ★ ★

: ــ سمية كانت صبية ، ومليحة ، ووسيمة ، لم يكن في شفتيها غلظة ، ولم يكن في وجهها وشم .. ويقولــون بانها احبت شابا كان ينطح الصخر براسه فينكسر الصخر .. كان ابوه عبدا من عبيد السديري . كان حبهما قويــا ، وكان حكاية جميلة من حكايا حارة العبيد ، ولكنه كان حبا قصيرا وداميا .. فذات يوم ، وقع اختيار السديــري على الشاب القوي ليقدمه هدية لامير نجد ، وجاء احد العطارين من جيزان ، وامام جميع الناس في حارة العبيد تــم خصي الشاب القوي الذي كان ينطح الصخر ، وبعد ان نام اسبوعا في الفراش لتشفى جراحه ، ارسل الى نجد لينضم الــى قافلة الخصيان في قصر نساء الامير .

قال والد عبد المعطي ذلك ، وراح في صمت عميق .

★ ★ ★

طويلة هذه الليلة الملعونة .. طويلة وقاتمة .

وانقلب ابن امينة على جنبه الآخر ، وقال :

ــ لا احد يغفو في حارة العبيد ..

ومد يده الى صدر فاطمة ، وعجن ثديها باصابعــه دون ان يشعر باللذة ، ثم سحب يده وقال :

ــ كيف يفعل ابو شنان ذلك .. كيف .. دم اليامي لم يجف بعد .. كيف ؟

وبعد فترة طويلة التصقت به اكثر ، فتنــاول شفتيهــا واعتصرهما دون ان يشعر باية لذة ايضا .

ـ كانـا بمثابة ولـدين لها .. اليامـي ذبحـوه ، وابو شنان .....

التصقت به اكثر فاكثر ، فلم يرتعش ، انفرزت حلمتها في صدره ، فلم يرتعش .

ـ طويلة هذه الليلة .. وقاتمة .. وسوداء .. وسوف تبقى ليالي حارتنا حالكة لفترة طويلة ، ولن يكون ثمة سوى الحزن واليأس .

★ ★ ★

الرياح تعبث بسعف النخيل ، تتسرب عبر الشقـوق والاخاديد ، وتحمل ذرات التراب والرمال .

وخيوط الفجر الاولى بدأت تظهر عند آخر نقطـة في الصحراء .

ونواح سمية بدا يخفت ويتحول الى انين ، كانه خارج من اقبية معتمة ، او قبور مغلقة ، او توابيت بداخلها قلوب تنبض .

-٧-

وراءك تركت كل شيء .

حارة العبيد وشارع الزيود ومقهى ابو رمش ، وتنهب سيارة الروفر الارض تاركة خلفها عاصفة من الغبار .

ريتا ، المستر ، وانت تتزمل في الثياب الافرنجية ، تحدق في الصخور النارية المسننة ، وفي اشجار الاراك الجافة . تعاودك في لحظات احلام الليلة الماضية . تقرا ريتا ملامحك .. تلكزك بكوعها ، يتلفت اليك المستر ويقطع الصمت قائلا :

ـ هنا سقطت طائرة بن لادن الخاصة .

كانت الشمس ساطعة وكانت ريتا تغمض عينيها نصف اغماضة .

ـ الطائرة من نوع (كونفير) ذات محركين ، وقد فقدت توازنها عندما وقعت في مطب هوائي ، وحاول الطيار ان يهبط في الصحراء الا ان احد المحركين تعطل فجأة ، فسقطت فوق هذه الصخور المسننة .

فتحت ريتا عينيها ، وقالت للمستر باهتمام :
ـ ماذا تقولان .. لماذا لا تتحدثان بالانجليزية ؟
اعاد لها المستر ما قاله فقالت بدهشة :
ـ اوه .. بن لادن .. سمعت عنه .. اليس هو الرجل الذي لا يستطيع حصر عدد اولاده ؟
هز المستر راسه بالايجاب ، وقلت لنفسك ان ريتا عالمة ببواطن الامور ، ولعلها تعرف عن نجران اكثر مما يعرف السديري ..

★ ★ ★

ابو ارشاش من بعيد ..
واحة نخيل وشلال ماء ينحدر من اعلى الجبل ، وثمة خيام ملونة .. وقفت السيارة عند الحاجز ودون ان يقف الحارس الاشقر الذي يمدد البندقية على ركبتيه ، اشار لكم بالمرور ..
عبرت السيارة الحاجز ، وقطعت طريقا وسط الاشجار الشوكية الجافة ، ثم انعطفت ودخلت المعسكر ..
ثمة رجل يقف عاريا تحت دوش ماء ، جسده اشقر ، ويخلو من الشعر كاجساد النساء ، وعلى اليمين صف من الكبائن ، امامها برك للسباحة ، وكانت امراة تلبس المايوه تتهيأ للقفز في الماء .
ـ يبدو ان معظمهم يتناول الطعام في المطعم .
قال المستر ذلك واشار الى بناء على اليسار ثم فتح الباب وترجل .. نزلت ريتا .. انت الان في ابو ارشاش ، الماء والنساء ، والمرتزقة الذين يعبثون بالدولارات .. هنا عالم آخر لا يمت الى نجران ، عليك ان تغمض عينيك وتنام مثل القطط ، وكلما استيقظ اليامي في دمك فستكون ريتا

جاهزة ، وكؤوس الويسكي ستكون جاهزة .. ويسكي مثلجة لا علاقة لها بكولونيا الحلاقة .

سار المستر وريتا .. سرت وراءهما .. دخلا واحدة من الكبائن . كان شاب يجلس وراء الطاولة بلحية خفيفة ، وسيجارة بين اصابعه ، فيما تدور مروحة سريعة الى جانبه .

قال المستر : ـ الامير علي السميري مندوب الامام في ابو ارشاش .

والتفت اليك ، وربت على كتفك وقال :

ـ ابو شنان .. ضابط الادارة الجديد .

ولم يقم بتقديم ريتا ووشت نظرات الامير اليها انه يعرفها اكثر من معرفة عابرة .

جلسوا ، وعند ذلك ضغط الامير على زر المروحة فتحركت موزعة الهواء البارد في انحاء الغرفة ..

وقام بتقديم السجائر ، فقال لك المستر :

ـ ستقوم بعملية الترجمة ما بين حضرة الامير والرجال الاجانب الذين يجاهدون مع صاحب الجلالة الامام .

هز الامير راسه موافقا ، وبدا واضحا ان للمستر سلطة في هذا المكان تفوق سلطة الامير ، وفي الوقت نفسه تذكرت كم ان الشبه عظيم بين الامير وبين غالية السميري !!

ظلت المروحة تدور ، وعندما كانت ريتا ترفع يدها لتدخن ، كان يظهر الشعر تحت ابطيها ..

وعبر النافذة ، هنالك صور لميكي ماوس على جدار مقابل .. اشعل المستر غليونه ومد رجليه على الطاولة الصغيرة وسط الغرفة بلا حرج ... واغمضت ريتا عينيها تاركة ساقيها مكشوفتين .

★ ★ ★

قال المستر بعد الغداء الفاخر :

ــ تستطيع يا بو شنان ان تسبح في اي من هذه البرك، وتستطيع ان تنتقل في جميع انحاء المعسكر ، ولكن بشروط ...

واشار المستر الى قمة التلة الصخرية التي ينحدر منها الماء ، وتابع يقول :

ــ محظور عليك الصعود الى تلك التلة ..

ثم اخذ نفسا من غليونه واضاف :

ــ وكذلك محظور عليك التحدث مع عناصر المعسكر الا من خلال الامير او ريتا .. طبعا يمكنك ان ترد عليهم تحية الصباح والمساء عندما تلتقي بهم في المطعم .

.. كانت ريتا قد استأذنت لترتاح في خيمتها. واخذت الشمس تغيب بوقت مبكر وراء التلة ..

مشى المستر وقال دون ان يتلفت :

ــ سوف تشعر في البداية بالقلق الذي يشعر به الانسان عندما تتغير حياته اليومية لكنك ستعتاد على الحياة هنا خلال ايام .

ثم قبل ان يتلقى المستر جوابا ، اشار بيده مجددا الى بضعة قبور من الاسمنت فوقها اشارة الصليب ... وقال :

ــ انهم من الرجال الذين قتلوا في المعارك .. لقد كانوا شجعانا .

والتفت المستر ونظر الى مجموعة من الرجال انصاف عراة يمرون في الساحة ، وتكلم كما لو انه تذكر شيئا :

ــ يوجد في المعسكر عدد من النساء للترفيه عن هؤلاء الرجال القادمين من اوروبا والذين لا يستطيعون العيش بدون صديقات وبدون بيرة مثلجة .

ثم مد المستر يده :

ــ الى اللقاء .. سأعود الى نجران .. ارجو ان اسمع

عنك اخبارا طيبة .

★ ★ ★

تغمض عينيك .. تهجم عليك صورهم ، ومن جديد ذهبت السكرة ، والياسمين مثل نبضات العصفور في الكف يرتجف سخونة وحنينا .

وسمية ينفرط لذكراها القلب كحبات المسبحة، وتهب نسمة ، تشم فيها رائحة حارة العبيد ، ويكتسح الحنين مشاعرك كالعواصف ، تتقلب على السرير .. تجتاحك رغبة في الهروب ..

★ ★ ★

ينفتح باب الخيمة ، يأتي صوتها ذو المذاق الحار . تنتصب وسط الخيمة بمنامتها الشفافة .

ريتا .. ريتا .. الدغيني مثل العقارب .. اطعميني الجوع كله .. كبهار كراتشي يشتعل طعمك في خاصرتي..

ريتا .. ريتا .. ادفني ما خفي مني وما ظهر .

-٨-

هـذا اليوم حملت سميـة سلة الفجـل ، وحزمة من القضب ، وذهبت الى السوق . وامام كوخها اجتمع عـدد من النسـاء المسـنات يستمعن الى تمثيلية (ام حديجان) من المذياع ، وكن يضحكن بافواه خالية من الاسنان او تكاد .

وثمة عنزة هزيلة الى جانبهن تلوك الاوراق ، وديـك يطارد دجاجة فيدركها ويقفز فوقها .. انتهت التمثيلية ، واخذ محمد عبده يغني (لا تناظرلي بعين ..) . وعند ذلك، عادت النسـاء المسـنات يتحدثن .

قالت واحدة : امسكوا امرأة كبير المطاوعة في فـراش جارهـا مفتش الصحـة في البلديـة .. ويقولـون بانهم سيرجمونها .

ردت ثانية : صبية ومظلومة .. زوجوها الى بغل ..

قالت ثالثة : يا اختي لا يجوز .. كيف تنام في فراش رجل آخر ؟

قالت الاولى بحدة : كيف ، يا اختي ، اذن يحق لهم ان

يخصوا الرجال ويختنوا النساء .. كيف .؟ الرغبة خلقها الله .. كيف يقتلون ما خلقه الله .؟

تركت العنزة الاوراق التي لم تستطع ان تلوكها، وبدأت تشم الارض وهي تلهث ، فيما نفش الديك ريشه كأنما يعلن انه ملتذ ...

اعلن المذيع ان الشيخ الحصري سيقرأ ما تيسر من سورة مريم ، فصمتت النسوة تأدبا وخشوعا ، ورفعن اعينهن الى الفضاء .

كانت بعض الغيوم تعبر السماء مسرعة ..

★ ★ ★

الولد عبد المعطي واصحابه يلعبون (الطرنيب) ..

والده المريض المنتفخ البطن ، يتمدد على الارض ، يحدق بسعف النخيل الذي بدأ يهتز بترنح ، ويشم رائحة مطر قادم ..

الشباب يمسكون الاوراق ، ويحدقون ببعضهم البعض، يقرأ الرجل المسن في وجوههم نذير المطر .. المطر يهطل مرة واحدة في العام ، يأتي ملاك الرعد ويضرب بسوطه الغيوم ، فيسقط المطر فوق الهضاب والسفوح وعبر شقوق الصخور والاجران ، وتلتقي المياه المتدفقة في وادي نجران ، وتأخذ في طريقها الاكواخ ، والواح القصدير وسعف النخيل والماعز والارانب والدجاج .

يشرب عبد المعطي الشاهي ويلعب الورق ، يحك الشباب رؤوسهم ، ويعدلون من وضع الطواقي فوق رؤوسهم ، ويشعر الوالد بدبيب الخوف يتسلل الى قلبه .

ربما .. ربما .. من يدري ، لعلني اعيش عاما آخر ، فيجد عبد المعطي عملا ويشتغل ، ونزوجه من عليا ذات الثلاثة

عشر ربيعا .. من يدري .. ربما .. ربما .

★ ★ ★

قال ابن امينة لزوجته :

ـ لم اجد عملا .. لم يعد احد يزرع خوفا من الفيضان .. السماء ستمطر ، والاراضي ستظل جرداء حتى ينتهي المطر ...

عبرت سحابة من الهم والغم ملامح فاطمة ، العروس ذات الثديين الصغيرين ، وقالت :

ـ لن يكون امامنا ما نأكله .. هل نموت جوعا ؟

تناول ابن امينة ابريق الماء فشرب ومسح فمه بطرف ثوبه وقال :

ـ سأظل ابحث عن عمل .

رفعت اليه عينين طفوليتين ، وقالت :

ـ ابو شنان اصبح يحكم ويرسم .. اذهب الى ابوشنان لعله يجد لك عملا .

نهرها ابن امينة بغضب ، ولكنها استمرت تقول بالحاح :

ـ ليس في حارة العبيد سوى الجوع والمرض .. الفقر والمهانة .. ليس في حارة العبيد سوى الرجال الذين يطلبون الجوع والراحة كالكلاب .

رفع ابن امينة يده عاليا واهوى بها على وجهها، فجثت فاطمة على الارض تبكي وتنشج . مشى ابن امينة .. مشى .. ومشى .. ترك حارة العبيد وراءه ، واخذ يخوض في الرمال الناعمة .

نجران قاسية وبلا قلب ، نجران زوجة اب ظالمة .. تفو .. تفو .. تفو حكام وتجار وحملة سلاح تفو .. تفو .. تفو ...

-٩-

وصل ابن امينة السوق ، وصل وهو يلهث وقد زاغت عيناه وبدا اثر الجوع على جلده الاصفر، لم يكن ثمة من احد، الشوارع فارغة والحوانيت مقفلة والمدينة صامتة . ظل يلهث وظل بطنه الضامر يرتفع وينخفض وظل يحدق بالشارع بذهن معطل .

من بعيد جاء (السقا) يحمل على كتفه عصا يتدلى من طرفيها سطلا ماء . جلس ابن امينة مقرفصا على الرصيف، وخطر له ان الناس في الصلاة وربما يكون المطاوعة قد اغلقوا الحوانيت نظرا لقدوم الامير الى المسجد مثلا ، وقال لنفسه: ان السقا لا في العير ولا في النفير ، وهو اهبل يدخل كل البيوت ، ولا تتحجب عنه النساء ، فماذا انتظر منه ؟

وصل السقا وهو يترنح تحت ثقل السطلين اللذين يمتلئان بالماء ، واذ ابصر ابن امينة توقف وقال وهو يمسح عرقه بظاهر كفه :

ـ ايش تفعل هنا يا بن امينة ؟.

تجاهل ابن امينة السؤال وقال بحلق ناشف :

ــ عطني شربة مويا انا فداك .

اقترب منه باحد السطلين فعب بلهفة ، وترك الماء يسيل حتى ذقنه ، ثم رفع راسه وقد بدا عليه الانتعاش .. واذ ذاك تساءل :

ــ اين الناس يا سقا . المدينة مغلقة .. اين البشر ؟

رفع السقا حاجبيه ، وقال كما لو انه غاضب :

ــ الم تسمع ؟

نفى ابن امينة ان يكون قد سمع ، فقال السقا :

ــ البشر يتجمهرون في ساحة القصاص .

مط ابن امينة شفته السفلى ثم استوضح :

ــ وهل يطقون راس احد الناس ؟

اجاب السقا وقد ظهر على وجهه حزن مفاجيء :

ــ انهم يرجمون امراة كبير المطاوعة .

ثم انزل العصا الغليظة عن كتفه وقرفص ، ثم جلس على الاسفلت الحارق ، وقال :

ــ لقد زنت مع شاب مثل القمر . زوجها شيخ لا يستطيع ان يروي ظمأها ، وهي شابة .. جميلة .. دوما تكحل عينيها ، وتلبس ملابس حجازية مزركشة .

وقف ابن امينة ، ومشى ، فيما ظل السقا يحدث نفسه ، وقال ابن امينة لنفسه : انا جائع .. فما فائدة الماء ..؟ وتذكر فاطمة التي تنتظره بوجه مثل قشرة الليمون، فازداد الغبش في عينيه . صاح السقا الاهبل بصوت عال :

ــ هل تذهب الى ساحة القصاص لتتفرج على الرجم ؟

لم يكترث ابن امينة ، وقال بصوت خفيض : ابوك وابو الرجم اريد ان املأ بطني .

وظل يسير في الشوارع كالتائه ...

★ ★ ★

هذا سوق اللحم .

ذبائح كاملة تتدلى من الكلاليب .

وثمة من يحمل الساطور ويشق احدى الذبائح الى نصفين ، واخر يقطع اللحم الى شرائح .. شرائح حمراء ... وعدد من الباعة يقرفصون امام محلاتهم يمسوكون اسنانهم بانتظار مجيء الزبائن .

يا بن امينة اللحم لذيذ ، وفي فمك مذاق الاحذية .. آه على رطل لحم .. رطل تأكله نيئا لوحدك .. لا .. ليس لوحدك . تطعم منه فاطمة شيئا كثيرا ، تشوي لها قطعة وراء قطعة ، تشبع .. تتمطى .. تتثاءب .. تقفز العافية الى خديها ، تتمدد الى جانبك على الفراش . تغني لها دان دان ..

تغني لك ، ونعيش عيشة هنية وسط زهور البرية ..

تمص فمها ، وتدس راسها تحت ذقنك ...

ـ ايش تبي يا ولد .؟

ابتلع ريقه ، وعرف ان ثمة من ينتهره .. فمشى ...

في اخر السوق كان الزبال عباجة الذي يلف وسطه بحبل من الليف ، وتدمع عيناه باستمرار يجمع الفضلات التي يجرها بغل تبرز جميع عظامه لشدة الهزال ...

ـ مرحبا يا عباجة .

مسح عباجة عينيه الدامعتين ، واقترب براسه اكثر ليعرف المتحدث ، ثم هز راسه ، وقال :

ـ كيف حالك .. كيف حال الربع ؟.

عبس ابن امينة ولم يجب ، وعند ذلك قال عباجة :

ـ اصعد معي الى العربة نتحدث واوصلك الى الحارة .

قال ذلك وصعد الى مقدمة العربة ، فمشى البغل بلا حماس ..

صعد ابن امينه الى جانبه واخذ عجلا العربة يهتزان ويحدثان صريرا فيما كانت رائحة الفضلات والجلود تتصاعد .

ـ جائع يا عباجة .. لم اذق الطعام منذ امس .

عاد يمسح عينيه الدامعتين وكان وجهه متسخا ، فقال عباجة دون ان تظهر عليه الدهشة :

ـ ذا الحين نأخذ فضلات معسكر الحرس الوطني وسنجد بينها الخبز وعلب السردين .

الجوع .. السراب .. الصرير .. العينان الدامعتان .. فاطمة .. فاطمة .. قليلا من الانتظار والصبر .

★ ★ ★

كومة من العلب الفارغة ، وقطعة صفيح كبيرة، واوراق، وقشور البيض ، ولا شيء غير ذلك .. جزء من المزبلة يحترق ببطء ، والدخان يتصاعد بلا اكتراث ، وليس ثمة كسرة من الخبز . والصمت .. الجوع .. الوجع .. الغبش .. القهر ..

ازدادت الدموع في العينين واحتقن الوجه المتسخ .

اغمض ابن امينة ، ثم فجأة .. استدار .. مشى .. ركض . لهث . دارت به الدنيا .. سقط .. وقف .. مشى .. ركض .. ومن جديد .. سوق اللحم .. الذبائح .. اللحم الاحمر ..

وقف يلهث امام اللحم الذي يتدلى من الكلاليب ..

ظل يلهث . وينهنه .. ويبكي .. ترتجف ركبتاه من الخور ..

ودفعة واحدة ، وبشكل فجائي هجم على اللحم طوقه بذراعيه وشده الى فمه واخذ ينهش ، فيما انهالت عليه القبضات واللكمات من كل جانب ..

وعلى الفور اقبل عدد من العسس واقتادوه والدم يسيل من انفه .

-١٠-

قالت ريتا : لقد وصل المستر ومعه بعض الناس ..

من اطراف المعسكر تفوح رائحة الطعام الذي يعده الطباخون لوجبة العشاء ، فيما يظل الماء يتساقط من اعلى الجبل بشكل متواصل .

ظل يرقب القبور ذات الصلبان بشرود وبوجه واجم .. فعادت تقول :

ـ ومن بين الحضور بوطالب وقائد الشرطة وبعض المسؤولين في ديوان الامير ..

تحولت نظراته اليها ، فاحتكت به قائلة :

ـ نظراتك هذه الليلة تخيفني .. لماذا لم تحلق ذقنك يا بوشنان ؟

كسر غصن الدفلى بيديه وقال بعصبية :

ـ زهقت من الحصول على الاشياء بسهولة .. بدأت احن الى التسكع والظمأ ..

رفعت حاجبيها دهشة وقالت :

ـ حسنا .. انت تعيش لحظة سأم .. سوف يتهمني المستر بالتقصير ... هل استطيع ان اعمل شيئا من اجلك؟

عاد الى صمته .. جلس .. وضع راسه بين كفيه .. استغرق بالصمت الطويل ..

جلست الى جانبه .. وضعت راسها بين كفيها .. استغرقت في الصمت ..

هبت موجة هواء حاملة معها رائحة الشواء ، وبدا احدهم يغني بالفرنسية بصوت حزين . رفعت راسها وقالت بصوت خفيض :

ـ هل تعرفه .. انه جان الفرنسي .. انه يغني لامه . هل سمعت لقيطا يغني لامه ؟

ظل صامتا وان كان قد رفع راسه اليها ..

فعادت تقول :

ـ هل تذكر امك يا بوشنان ؟

حك ذقنه .. وهز راسه بالنفي .

ـ هل ماتت وانت صغير ؟

هز راسه بالايجاب ..

ـ الا تذكرها ؟

خرج عن صمته ، وقال بصوت طفولي : لا اذكرها ماتت وانا صغير لكنني اذكر امي الثانية .. تلك المراة التي احتضنتني بعد موت امي .. اسمها سمية ، لونها اسمر ، قلبها ابيض .. من كفيها تفيض البركة .

ـ اهي زنجية ؟..

عبس .. فاستدركت سريعا .

ـ اعني هل هي من اللواتي اعتقهن الامير ؟

عاد الى صمته ثم قال بعد حين :

ـ الامر لم يتغير .. لقد صدر قانون عتق العبيد لكنهم

ظلوا فقراء ومواطنين من الدرجة العاشرة .

ارتفع صوت المغني الفرنسي بنبرة كلها أسى ، وعندما انتهى صفق له مجموعة من رفاقه ..

فقالت ريتا :

ــ هذه الليلة لن اكون معك ...

تمدد على الارض تاركا رأسه تحت كتفيه .. وسألها :

ــ لماذا ..؟

قالت بصعوبة :

ــ لانني يجب ان اذهب الى ذلك المكان ...

اعتدل متكئا على ذراعه ، وسألها مجددا :

ــ اهو المكان المحظور على دخوله ؟

هزت راسها .. فاستمر يتكلم باهتمام :

ــ هل هناك ليلة حمراء لضيوف المستر ؟

اجابت بالصعوبة نفسها :

ــ اجل .

ــ وهل تذهبين ؟..

ــ اذهب انا وجميع النساء في المعسكر ..

صمت لحظات ... رسم باصبعه على التراب بارتباك ثم عاد فسألها وقد ارتسم على وجهه القلق :

ــ الا تستطيعين الاعتذار ؟

ابتلعت ريقها ، وقالت :

ــ لا استطيع .. انها اوامر المستر .

ثم امسكت يده ، وضغطتها :

ــ هل انت قلق علي يا بوشنان ؟

نظر في عينيها ولم يجب ..

ــ يا بوشنان .. انني اكره الذهاب .. انهم شاذون .. انهم يتعاملون معي بشكل مرعب ..

طأطأ ابو شنان راسه .. وفي الوقت نفسه سمع اسمه في الميكرفون ، فوقف ..

ـ لا بد ان المستر يريد محادثتي ..

★ ★ ★

قال المستر وهو يتبختر في ثوب عربي ، ويمسح نظارته بقطعة قماش :

ـ يا بو شنان اذهب الى نجران .. انت مجاز لمدة ثلاثة ايام .

هز ابو شنان راسه ، ومشى دون ان ينتظر المزيد ...

صعد الى سيارة الروفر ، ادارها .. ودفعة واحدة تركها تنطلق بالسرعة القصوى ..

يا بوشنان .. عيناك تدمعان ، ومثل سمكة تسبح في العروق تغلي المهانة الشرسة .. لا امر ولا خمر .. لا انت حاضر ولا انت غائب .. ومثل الاسفنجة التي يمسح بها ابن عناق طاولته القذرة يمتص صدرك الحقارة والنذالة .. كانك لم تكن ذات يوم زينة الرجال ...

كانت سيارة الروفر تعلو وتهبط فوق الحجارة والصرار، وحتى المقود بين يديه كان يتحرك كما لو ان احدا لا يسيطر عليه ..

يا بوشنان .. يجب على الفقراء الا يسكروا الا بعد الانتصار .. هكذا كان يقول مشعان ..

مشعان .. مشعان .. حين نغرق بالقذارة نتذكر الطهر، ولذلك اذكرك الان ، اما اليامي فسوف اجثو على رمال الصحراء وانتحب من اجله حتى الموت ..

وسمية .. ستبتسم لي ذات يوم ، وعند ذلك .. ما الذي سيحدث لو انها ابتسمت لي مرة واحدة . سأعود لكم

.. ساعود لكم واشرب الكولونيا والسبيرتو ..

سأبكي اليوم وغدا وبعد غد واليوم الذي يليه ..

بدأت السيارة تتأرجح بين الحجارة الكبيرة ، وتعلو وتهبط .. وكانت الصخور تقترب .. والظلمة تشتد .. وكل الاشياء التي بلا قلب تزداد قسوة ..

-١١-

تهتز العربة .. تميل عجلاتها ذات اليمين وذات الشمال ، ويصدر عنها صرير والبغل دامع العينين يمشي بتثاقل يلوك اللجام الصدىء ، وتبدو عظام حوضه نافرة كما لو انها ستثقب بعد حين الجلد ..

وعباجة فوق كومة الفضلات يعصب رأسه بغترة وسخة ، ويمسح بين الحين والاخر عينيه الدامعتين باستمرار وكالعادة لا يعرف الامس من اليوم ولا الجمعة من الخميس . لا احد يعرف اين ينام .. او متى اغتسل اخر مرة . اوهل تعطيه البلدية اجره ام لا .. لا احد يتلفت اليه .. او يحس به .. يجمع الفضلات بشرود دون ان يتنبه بدوره الى احد .. ويتمتم احيانا اشياء غير مفهومة ربما يغني لنفسه ، ولكن بالتأكيد فان احدا لن يعترف بان هذه التمتمة شيء يشبه الغناء ..

وهذا الصباح كان يتمتم وكانت اذنا البغل تنتصبان . مرق على سوق الصاغة ، وعلى الشارع الرئيسي وشارع

الزيود وسوق اللحم ، حمل كل الفضلات في عربته .. وها هو يقترب من سجن (صعيد نجران) ليحمل الفضلات ... طرق الباب كالعادة خرج له الحارس عبده الذي لا يتكلم وانما تتكلم ملامحه الصارمة ..

وكان عباجة لا يزال يتمتم لنفسه ما لم يتوقف عن التمتمة به منذ الصباح .. احضر احد السجناء كيس الفضلات على ظهره وبعد ان انزله نظر الى السماء وتنفس بعمق وزاغت نظراته عبر الصحراء الممتدة .. واذ تباطأ فقد نهره عبده الحارس ، فعاد يجرجر رجليه المقيدتين ، ثم ابتلعته البوابة ذات الرتاج والقفل النحاسي الكبير ...

استأنف عباجة السير وظل يمسح عينيه الدامعتين ، وظل البغل يسير بلا مبالاة وبين الحين والاخر كان يمر باعة القضب والفجل في طريقهم الى المدينة .. وكانت بعض الفضلات تتساقط من العربة الطافحة بلا اكتراث فتلتقطها طيور القطا السابحة في الهواء فاتحة مناقيرها بلهفة .. وتأتي زوبعة دائرية تحمل في دورانها الحصى والاوراق ، يلف عباجة الفترة حول انفه ويزداد تساقط الدموع من عينيه ..

ومن بعيد تقبل المزبلة .. يتصاعد منها الدخان ورائحة احتراق التنك والقصدير والعلب الفارغة ..

ثمة اطفال من حارة العبيد ينبشون الفضلات ويتصايحون .. تحلقوا حول العربة واحدهم تسلق مؤخرتها فانتهرهم عباجة ولكنهم لم يخافوا ولم يكن احد منهم يتوقع منه الاذى ..

وقف الاطفال ينتظرون افراغ محتويات الكيس الذي يحوي في اغلب الاحيان بالاضافة الى القشور والاوساخ بعض قطع الخبز وحبات التمر ..

هبط « عباجة » وازاحهم بيديه وقال لهم وهو موقن

بانهم لن ينصاعوا :

ـ يا اولاد .. انتظروا ... ذا الحين نفرغ الكيس .

استدار الى العربة ، وجذب الكيس بيديه فسقط على الارض ، وافرغ محتوياته . هجم الصبية وتزاحموا على نبش الفضلات فيما استمر (عباجة) في تفريغ بقية حمولة العربة .

انتهى من ذلك سريعا فمسح عينيه وهم بصعود العربة لكن احد الاطفال صرخ برعب ثم صرخ اخرون وبعضهم ولى الادبار . اقترب عباجة وقد توقف عن التمتمة ، فشاهد يدا مقطوعة من الرسغ .. يدا بخمسة اصابع قصيرة .. ركع عباجة على ركبتيه امسك الكف بيديه ، كان اللحم طريا والاظافر تحتقن بالدم الجامد ، وكان يستطيع ان يرى الشعر الخفيف الذي ينبت فوق الاصابع كما كان يستطيع ان يرى العروق الزرقاء المتشنجة فيها ...

ـ يا اولاد .. اذهبوا .. ابعدوا عن هذا المكان .

وكان صوته مجروحا وكان فيه نذير البكاء . حمل الكف ووضعها في عبه ، ثم صعد العربة وانتهر البغل بعصبية ثم تناول الكرباج (حبل من سلك تلفون وجده في فضلات معسكر الحرس الوطني) والهب ظهر البغل الذي اضطر ان يقاوم في البداية ويضرب بقائمتيه الخلفيتين الهواء ، ثم انطلق يعدو على غير عادة في الارض الرملية الحارقة .. وصل بوابة سجن (صعيد نجران) وكان بعض الزوار القادمين من (الموفجة) ينتظرون . وقف بينهم وقد احتقن وجهه وبقي صدره يعلو ويهبط .. وعندما انفتح الباب واطل وجه الحارس عبده اقترب منه فبادره عبده قائلا :

ـ ايش تبغي يا عباجة ؟

ابتلع عباجة ريقه ومسح المزيد من الدموع في عينيه . وقد خرج في بداية الامر ما يشبه الفحيح من فمه ، ثم

اخرج صوتا لا يمت اليه :

ــ ابغي اشوف ابن امينة .

دون ان تفارق الملامح الصارمة وجهه اجابه عبده :

ــ ايش تبغي تشوف في ذاك اللص ؟

ثم كأنما فطن الى شيء فاستدرك :

ــ آه لعلك يا عباجة وجدت يده في كيس الزبالة .. انصرف .. انصرف قبل ان اطلق على راسك بالبندق ..

استدار (عباجة) بانكسار ، صعد العربة .. فمشى البغل ببطء وهو يشمشم الارض بصعوبة .. مشى .. ومشى ، وعندما ابتعد اخرج عباجة الكف من عبه ، نظر اليها بامعان ، ثم انكب عليها يقبلها وهو يتمتم ....

-١٢-

توقف بسيارة الروفر امام مقهى (ابو رمش) .. فتح الباب وهبط ، وكان الغبار يغطي شعر راسه وذقنه ورموشه ، ورغم انه لاحظ ان بعض الناس ينظرون اليه ، الا انه لم يلتفت .

هرع من الداخل ابن عناق وعلى وجهه فرحة طفولية :

ـ مرحبا .. مرحبا يا بوشنان .. نورت المقهى حقنا..

دخل دون ان يتفوه بكلمة وتبعه ابن عناق وهو ينفض عن قميصه المبتل بالعرق ذرات الغبار ...

توقف رجلان كانا يتحدثان بهمس وانسل احدهما خارجا فيما حدق بعض الجلوس باهتمام ...

ـ هل احضر لك شاهي بالنعناع .؟

وافق بهزة من راسه وقال ابن عناق في نفسه : « ابو شنان اصبح مثل السادة الذين يتكلمون من رؤوس انوفهم .. الله الله يا دنيا» .. مسح بنظراته المكان .. المقاعد الخالية والطاولات القذرة التي يحط على دبقها الذباب ، لا

شيء يتغير في المكان ، لكن اشياء كثيرة تتغير في اعماقك .. يتغير في داخلك كل شيء حتى الامعاء والكبد والغدة الصفراء .

مسح جبينه بكفه الوسخة ، واغمض عينيه .. تغفو .. تغفو .. تنتابك رغبة في النوم ، في غيبوبة طويلة . احضر ابن عناق ابريق شاهي ساخن يتصاعد من فوهته بخار كسول وقال :

ــ شاهي على طلبك ..

دعك عينيه . كالفلفل الحار اذ يلامس اللسان يسكن فيهما اللهب .. وكانت العروق الحمراء تنتفخ وتأكلها الحرارة والغبار ..

ــ يجب ان تغتسل شعرك كله غبار ..

الغبار .. الغبار ..

الغبار في عيني ، في حلقي .. الغبار يغلفني .. جسدي معجون بالغبار والدبق .

ــ اصبحت مشهورا يا بو شنان .. الناس تتحدث عنك اكثر مما تتحدث عن بوطالب .. الويسكي ، المستر ريتا ، والشهرة الجوفاء ... العار المجوف .. والصمت .. وسمية وحارة العبيد .. والغضب الذي يسبح في العروق كأسماك القرش ..

نظر الي ابن عناق ذي الوجه الطفولي الذي لا ينمو وقال له :

ــ اجلس ..

جلس ابن عناق وهو يكاد لا يصدق ثم اخذ يصب الشاي في الاستكانة فيما اشعل ابو شنان سيجارة وبعد ان رفع رأسه سأله ابو شنان على الفور :

ــ اين الزيدي ؟

ضحك ابن عناق واجاب .

ـ لقد ذهب الى الجبهة .. هناك على جبال صعدة ..

حك انفه ، ثم عاد يسأله :

ـ وما هي اخبار سمية ؟

اكتست ملامح ابن عناق بالجد وهو يجيب :

ـ تبيع الفجل كل صباح في السوق ولكنها لم تعد كما كانت سابقا :

ثم توقف قليلا واضاف :

ـ لكن حدثت فاجعة في حارة العبيد ..

استيقظ ابو شنان تماما وازدادت ملامحه عبوسا ..

ـ ابن امينة كاد يهلك من الجوع فهجم في سوق اللحم على ذبيحة معلقة واكل منها فسجنوه بتهمة السرقة وقطعوا يده من الرسغ .

اطفأ بوشنان سيجارته بكأس الشاي بعصبية ، ووقف ..

★ ★ ★

توقف هذه المرة امام دكان رأفت العدني الذي كان يتهيأ لاغلاق المحل ..

ترجل من سيارة الروفر فاستقبله رأفت بتحفظ ، وكانت نظرات رأفت مخيفة ..

ـ ابغي قرص من الفلافل الزاكية .

قال رأفت بالتحفظ لنفسه :

ـ غلّقنا .. لم يبق فلافل ..

ظل واقفا دون ان يقول شيئا وظل رأفت واقفا بلا حماس .. حدث نفسه :

نظراته تدينك وتزدريك .. فكيف اذن ستجرؤ على ان تضع عينيك بعيني سمية ؟

مرة اخرى تطوف بك سيارة الروفر في الشوارع الخاوية .. الغامدي يغلق دكانه .. وباعة العربات يهرولون الى بيوتهم وعمال البلدية يعلقون الفوانيس في الشوارع . وعند الزوايا والمنعطفات يقف العسس والشرطة والكلاب الضالة والقطط ، وانت مثل ذبابة مقلوبة على ظهرها .. فأين الملاذ ؟

★ ★ ★

عاد الى المقهى ..

كان ابن عناق يكنس الارض وقد صف الطاولات فوق بعضها البعض وعندما رآه ترك المكنسة وغسل يديه واقبل مرحبا .

تمدد ابو شنان على الكرسي الطويل الذي يشبه الاريكة وقد بدا وجهه مكدودا ..

ـ يا بن عناق ابغي اسكر . ابغي اشرب حتى الصبح ..

بدت عليه الحيرة ، فقال ابن عناق كما لو انه يود ان يبكي :

ـ يا بن امي انا فداك ليس عندي سوى الشاهي والقهوة .

ـ يا بن عناق .. هات لي شاهي أسود .. اسود مثل القطران .

هز ابن عناق راسه باسى ثم هرول الى البريموس فاشعله من جديد وصنع ابريق شاي ، وعاد مهرولا .

كان ابو شنان يغط في النوم ..

هزه ابن عناق ، ففتح عينيه :

ـ انهض يا بن امي .. يجب الا تنام وانت مغموم ..

اعتدل ابو شنان وفرك عينيه ثم تناول الشاي ، واخذ

يرشف دون ان يتكلم ..

فجأة ظهر عند بوابة المقهى شبح يتمايل ويصدر تمتمات تشبه الفحيح .. وعندما اصبح في دائرة الضوء هتف ابن عناق :

ـ انه الزبال (عباجة) ..

دخل دون ان يطرح السلام وكانت تفوح منه رائحة خمر رديئة .. جلس على الارض امامهما وظل يتكلم مع نفسه ويتمتم والزبد يخرج من شدقيه ..

قال ابن عناق باشفاق :

ـ احيانا يسكر فيأتي لينام هنا .. من النادر ان يفعل ذلك .. ان ذلك لا يتكرر كثيرا ..

سعل (ابو شنان) وارتشف المزيد من الشاهي وكان يراقب الرجل باهتمام ..

اجهش (عباجة) فجأة بالبكاء . فانحنى ابن عناق واخذ يهدهده :

ـ في مثل هذه الحالات لا يفصح مثل طفل رضيع ، يبكي ولا يدري احد من اين يأتيه الالم ..

قال ابن عناق ذلك وهو يربت على كتف (عباجة) ويمسح جبينه وشعره ..

توقف عباجة عن البكاء . كف فجأة وامتدت يده الى عبه واخرج الكف ذات الاصابع المتشنجة والقاها على الارض وهو يتمتم ويقول اشياءه غير المفهومة .

فتصلبت نظرات (ابو شنان) .. احس بشعر رأسه يقف وتنتابه هزة تعتصر الفؤاد وتكتم الانفاس ...

-١٣-

امتلأت الشوارع بالنفايات واخذت تفوح روائحها الكريهة الى البيوت ، وعششت الفئران في اكوام الزبالة فيما تحلقت حولها القطط والكلاب ذات الاحجام الكبيرة .

اما الذباب ، فقد كان يحط جماعات فوق العفن ثم يطير عندما تقترب الكلاب وتحط من جديد فوق الوجوه وعلى البضائع والجدران . لم يعد احد يرى الزبال (عباجة) كما ان احدا لم يعد يرى عربته وبغله ذا العظام البارزة . . .

قال رجال يأكلون في مطعم رأفت ان (عباجة) الذي وجد يد ابن امينة في كومة الزبالة قد اصابه الخبل ، وانه تاه في البراري والوديان . . وقد يعود ذات يوم وقد لا يعود . . قال لهم رأفت بعد ان انتهوا من سيرة عباجة : يا شباب . . اريد ان اذهب الى البريد لارسل برقية الى عمي في جدة . . ارجوكم ان « تبقوا حتى اعود . » ثم انه ركب الدبّاب وذهب . . .

ولما عاد وجد ان الشباب يستأنفون الحديث في سيرة

(عباجة) فجلس يستمع الى حديثهم ..

وعندما انتصف النهار توقفت بضع سيارات عسكرية امام مطعم رافت ونزل منها جنود يحملون البنادق فاقتحموا المطعم ، وقبضوا على رافت وقلبوا الاشياء وفتشوا المطعم تفتيشا دقيقا .. ثم وضعوا الاصفاد في يدي رافت وفي قدميه .. واخذوه معهم ..

★ ★ ★

في باحة السجن ، ودون ان يسأله احد اي سؤال ، القوه ارضا ، ورفعوا قدميه عاليا وضربوه فلقة بالعصي الغليظة ، فصرخ رافت وبكى وتوسل اليهم ، وطلب من كل الانبياء ان يتدخلوا ، فانتفخت قدماه وجف حلقه ودمعت عيناه دما ..

وعندما توقفوا عنضربه كان ينبحتارة وتارةاخرىيبكي

وعندما توقفوا عن ضربه كان ينبح تارة وتارة اخرى بحرقة . وجاء احد الحرس ، فالقى عليه سطلا من الماء فقبع رافت في احدى الزوايا وهو يرتجف .

ظل حتى جفت ملابسه ، واذ ذاك جاء الحارس عبده وشده من شعر راسه وانتهره لكي يقف .. ثم دفعه بقسوة الى الامام وظل يتدحرج الى ان وجد نفسه في غرفة مضاءة ولم يكن يستطيع ان يرى من خلال الغبش شيئا ..

وبعد برهة استطاع ان يميز الشخص الذي يجلس وراء الطاولة ويضع على عينيه نظارة ، فأحس بالرعب ..

قال له المستر : قضيتك من اختصاصنا .

ابتلع رافت ريقه بصعوبة ، فسأله المستر على الفور :

ــ اسمك .

ــ (بعد ان ازدرد ريقه) رافت

ــ اسم ابيك ؟

ـ عبد المعطي
ـ اسم امك ؟
ـ .. غزالة .
ـ متى دخلت الى السعودية ؟
ـ منذ عام ..
ـ هل لديك اقامة من دائرة تسجيل الاجانب ؟
هز رأفت راسه بالايجاب . فصمت المستر قليلا واخذ يقلب بعض الاوراق امامه ..
ثم سأله :
ـ المدعو خالد محمود .. اهو عمك
ـ نعم ..
ـ ماذا يعمل ؟
ـ صاحب مطعم في جدة ..
ـ هل ارسلت له برقية هذا الصباح ..
ـ نعـم ..
ـ ماذا كتبت فيها ؟
ـ يا سيدي كنت قد طلبت منه مع احد المسافرين ان يرسل لي قوالب فلافل فتأخر ، ولذلك ارسلت له برقية قلت فيها ارجو ان ترسل لي القوالب ..
دق المستر بقبضته الطاولة ، وصرخ :
ـ انت تكذب ..
فـارتجف رأفت اكثر مـن اي وقت اخـر ، وتساءل بضعف :
ـ ولماذا يا سيدي ؟
فأبرز المستر له صورة عن البرقية وقال :
ـ انظر .. لقد ارسلت تقول له ارجو ان ترسل لـي القنابل .
ـ القنابل ؟.

وهجم خوف شرس وتكلم بصوت مذعور :

ـ يا سيدي .. انا بائع فلافل .. اصنع اقراص الفلافل بقوالب نحاسية مستديرة ، وهي غير موجودة في نجران ، ولذلك فقد اوصيت عمي ان يرسل لي بعضا منها .. انني لا اعرف القنابل ، ولا ادري كيف يستعملونها .

جلس المستر على كرسيه : اشعل غليونه وظل صامتا .. ملأت حلقات الدخان جو الغرفة ، واذ ذاك قال المستر بهدوء :

ـ انت تعد لصفقة اسلحة .. اغلب الظن انك اتفقت مع بعضهم لتهريبها الى صنعاء .. اليس كذلك ؟

ثم اخذ نفسا من غليونه واستمر يقول :

ـ سوف تنكر في البداية ، ولكننا سنعرف كيف ننتزع منك التفاصيل .. ولا تنس انك اذا تطوعت وعملت على تسهيل مهمتنا ، فان ذلك سيكون لصالحك .

ـ يا سيدي .

قاطعه المستر بغلظة :

ـ لا اريد منك جوابا الان .. سنلتقي في وقت اخر .

ومرة اخرى دخل الحارس عبده وشد رأفت من شعره، ودفعه الى احدى غرف السجن .

★ ★ ★

غرفة معتمة حتى لو ان احدا مد اصبعه امام وجهه فانه لن يستطيع ان يراها ، تعثرت قدماه ببعض الاشياء ، وكان ثمة رائحة بول وعفن .. والتفت ينظر الى تلال الظلام، واحس ان العتمة ثور هائل بعد هنيهة سيقلب الدنيا راسا على عقب ، واحس في الوقت نفسه بالوجع .. ودبيب الالم يخز بقوة كوخز الدبابيس .

جلس .. شعر برطوبة الارض الصلعاء ، اسند ظهره الى الجدار ، وازداد الوجع واصبح مثل الجرح اذ يسقط عليه الملح .. اسند رأسه ايضا الى الجدار ما الذي يحدث وكيف تسير الاشياء .. ولماذا يلفقون لي هذه التهمة ؟ الوجع في رأسه يكاد يشقه الى نصفين ؛ وحلم في لحظات طويلة من النوم ولكن عينيه بدأتا تعتادان الظلام .

قال رجل قريب منه بصوت خافت :

ــ من انت ايها القادم الجديد ؟

جاء صوت آخر اقل خفوتا :

ــ اخفض صوتك سوف يسمعك الحارس .

عاد الصوت الاول يسأل بالحاح :

ــ من انت ايها الرجل ؟.

حدق في الظلام باتجاه الاصوات ، وكان موقنا بان الغرفة تعج بالسجناء وعندما تكلم خرج صوته في غاية الخفوت لانه لا يقوى على ان يرفع صوته اكثر من ذلك .

ــ انا رأفت العدني .

وجاءه اكثر من صوت وفي وقت واحد :

ــ انت بائع الفلافل ...

هز رأسه كما لو انهم يشاهدونه .. وانتابه شعور انيس ، ورغم الالم الشديد احس ببعض الالفة ..

ــ وما هي التهمة التي سجنوك بسببها ؟

فرك عينيه وكان يخيل اليه انهما ممتلئتان بالرمال ، واجاب بعد ذلك :

ــ لفقوا لي تهمة بيع الاسلحة .

وفجأة جاءه من الخارج صوت صراخ حاد واصوات كرابيج متتابعة ، فانتفض رأفت وانهمر الرعب والخوف ودقات القلب ، ازداد الصراخ الذي تحول بعد حين الى لهاث اجش ثم الى صمت مطبق .. وظل الرعب يرفرف في

اجواء الغرفة ..

فقال احدهم : لقد القوا به في بئر الدم .

ولم يزد احد شيئا . وظلل المكان صمت دامس ..

ومرت فترة طويلة قبل ان يقترب منه احدهم ويهمس :

ـ كيف الاشياء في الخارج .؟

ـ ....

ـ ما لون السماء وما طعم الماء والهواء ؟.

ـ ....

ـ كيف حارة العبيد وما اخبار المطر ..؟

ـ ....

ـ انا ابن امينة قل ولا تخشى شيئا ..

ـ ....

ـ هل حدثك احد عن فاطمة .؟

ـ ....

ـ هل عرفوا انهم قطعوا يدي من الرسغ ؟

ـ ....

ـ لماذا لا تتكلم ... لماذا لا تتكلم ؟

ـ ....

ـ قل ان فاطمة بخير ، وان حارة العبيد في احسن حال وانهم سيزورونني ذات يوم ..

ـ ....

ـ لو قلت ذلك فانني سأعرف انك تكذب ولكن هـذا سيفرحني .

ـ ....

ـ انت تبكي .. تبكي .. تبكي ..

ـ ....

ـ ....

-١٤-

امتلأت السماء بالطائرات ، وتوالت الانفجارات والسنة اللهب .. صعد الناس في حارة العبيد الى اسطحة الاكواخ وبعضهم اعتلى اشجار النخيل ، وعلى مدى البصر كانت كتل سوداء من الدخان تتصاعد ..

وكان الصقيع يتسلل من تحت الابواب ومن ثغرات الاكواخ . دخل الولد عبد المعطي يمسح انفه المحمر بفعل الرشح ويبصق كتل البلغم ويحدق بالصواريخ المتساقطة من بعيد ...

ـ انها المعركة ..

ـ بو طالب ورجاله يركبون الوعر كالاغنام والطائرات المصرية يا دين الله ..

اما سمية فقد اشعلت كومة من الحطب وجلست امام النار تفرك كفيها وهي تقرأ تعاويذها . وقال والد عبد المعطي وهو يتحسس بطنه المنتفخ : ليتني اعيش حتى تنتهي الحرب . واما اوراق الشدة فقد تناثرت على الارض وحملها

الهواء كيفما اتفق .. وتحلقت العجائز حول المذياع يستمعن الى نشرة الاخبار من اذاعة الرياض بينما فاطمة زوجة ابن امينة ترتجف خوفا او بردا ولا تجد زيتا تشعل به السراج .. وهبط الولد عبد المعطي عن سطح الصفيح وتوجه الى كوخ سمية فطرح عليها السلام ، وقرفص امام النار .. كانت تطرق وهي صامتة فيما يطقطق الخشب المحترق ويتطاير منه الشرر ..

ــ يا اماه سمية ..

رفعت راسها فانعكس اللهب واضاء ملامحها السمراء.

ــ يا اماه .. الا تسمعين اصوات القصف .. انها معركة كبيرة في جبال صعدة .

ظلت السنة اللهب المتراقصة تعكس ظلالها على وجهها..

ــ يا اماه .. هل تستمعين الي قليلا ؟

رفعت عينيها اليه .. عينين يسكنهما التعب والاسى..

ــ يا اماه امس جاء الى الحارة سائق ونيت يعمل على خط جدة وسألني عن ابو شنان .

تنهدت ولم تقل شيئا :

ــ يا اماه ... قال انه يريده لامر هام ، فقلت له لماذا ؟ فقال هناك موضوع يخصه ولا استطيع ان اطلع احدا سواه .. فقلت له انه مسافر وسوف يعود .. فغادرني الرجل على ان يعود في فترة اخرى .

لا ادري يا اماه لماذا قلت له انه مسافر .. لم اقو على ان اقول له شيئا غير ذلك .

ظلت ظلال السنة اللهب تتراقص على محياها الذي تنبت فيه عينان صامتتان كالخرز . وظلت اصوات القصف تتعالى .

ــ جاء الرجل هذا الصباح مرة اخرى .. وسألني ان كان ابو شنان قد عاد من سفرته فاجبته بالنفي واذ ذاك يا

اماه ، ارتسمت على وجهه الحيرة .. وكان الرجل حزينا في تلك اللحظات .. حزينا وحائرا لا يدري ماذا يقول ...

دعوته لشرب الشاهي غير انه ودعني بسرعة وركب سيارته وانطلق بعيدا كما لو انه يهرب .

هزت رأسها .. لعلها تستعيد صورا كثيرة .. وظلت تهز رأسها كما لو انها تتحسر .

ـ انه رجل حجازي يا اماه .. ان له نظرات تشبه نظرات اليامي .. هل ثمة ما يمكن عمله ؟.

★ ★ ★

فجأة صاح عبد المعطي ، وهو يشبك اصابعه فوق رأسه :

ـ القنابل تتساقط علينا .

ظلت سمية تحتفظ بهدوئها وقالت وهي تمسح جبينه :

ـ لا تخف ، انها ليست قنابل ، ان الدنيا ترعد وتبرق وقد جاء اوان المطر .

وسرعان ما بدأ الرذاذ يتساقط ثم تحول الرذاذ الى المطر .. ظل صوت المطر ينقر اسطحة الصفيح ، ويتسلل عبر اغصان الاشجار وجريد النخيل ، واصبح للدفء مذاق خاص . وامسكت سمية الملقط وحركت الجمر المتراكم في الموقد .. ثم رفعت نظرها الى السقف وهزت راسها :

ـ انه المطر ...

سقطت نقطة على راسه فرفع عبد المعطي يده ومسحها.

ـ ان السقف يدلف يا اماه ..

سقطت نقطة اخرى على نفس المكان ، فمسحها بيده ، وظل هدوؤها الغريب يقلقه .

سقطت نقطة على الجمر الاحمر في الموقد وسرعان ما

اضمحلت وذابت في التوهج ..

وعاد يمسح راسه من جديد ثم يراقب النقطة التي تسقط على الجمر فتحدث لثوان قليلة بقعة سوداء وسط الجمر المتوهج .

وتظل سمية تحتفظ بهدوء ، لعله شرود ، لعلها تتذكر .. وكانت المسبحة تتدلى من بين اصابعها ..

مطـر ..

مطـر ..

مطـر ..

ـ ....

ـ ....

ـ ....

قال لها : يا اماه لقد تحول الدلف الى مزراب ..

كان الماء ينقط من السقف برتابة ولم يعد ثمة من مكان لا تتساقط عليه نقاط المطر .

انطفأ الجمر ، وانعجن الرماد بالماء ..

ومن الخارج جاءت اصوات شيء ..

ثم سمع صوت المنادي.. واصوات الصريخ والاستغاثة، فوقف عبد المعطي ، وانحنى يطل من باب الكوخ فرشقته خيوط المطر . وعبر الانهمار كانت اشباح تتراكض وهي تصرخ ...

وقفت سمية فجاة ، وقالت: يا لطيف .. يا لطيف.. يا لطيف .. انه الفيضان .

استدار اليها وقال بهلع :

ـ الفيضان ...

وردد بارتباك :

ـ الفيضان .. الفيضان .. كيف .. كيف ..

اعادت سمية المسبحة الى جيبها بعجلة وقالت :

ـ علينا ان نبتعد عن هذا المكان ..

دفعته امامها فانفرزت خيوط المطـــــر في وجهيهما وصفعتهما ريح السموم .. وقالت تخاطبه بصوت عال كما لو كان بعيدا للغاية :

ـ اصرخ بصوت عال .. اصرخ .. اصرخ .. الـــى الاخدود .. الاخدود .

ثم حدث هرج ومرج .. وزعيق .. وصراخ .. وبكاء اطفال ..

وحملت النساء الصرر على رؤوسهن والاطفال بأيديهن، وبأسنانهن كن يحملن أطراف أثوابهن .

وهجم عبد المعطي على الكوخ ، فوجد والده يرتجـف وقد التصقت ثيابه بجسمه. وعندما رآه الشيخ ، بكـــى كالاطفال وقال كأنما يحدث نفسه :

ـ ربما اعيش عاما آخر و .....

وعند ذلك انحنى عبد المعطي وحمل الشيخ على ظهره، ومضى يركض فوق الارض الرملية الرخوة ....

-١٥-

يهطل المطر من السماء يفترش اسطحة البيوت يسيل بغزارة من المزاريب وينحدر من أعالي الجبال ، يتدفق في الشارع ويفيض فوق الارصفة ويدفع الابواب ويملأ البيوت المنخفضة في شارع الزيود ..

ويرفع الرجال سراويلهم ويخوضون في الماء بسيقانهم الرفيعة ويحفرون اقنية جانبية لجر الماء بعيدا فيما تغرف النساء الماء بالطناجر من الباحات . ولبس ابن عناق كيسا من الخيش على راسه وأخذ يحفر ليبعد سيل الماء المتدفق .. وفي الداخل كانت الطاولات فوق بعضها البعض وتسقط عليها قطرات الدلف بشكل رتيب .

وفي الزاوية يتمدد (ابوشنان) على السرير بكامل ملابسه . عيناه حمراوان وتفوح منه رائحة خمر رديئة . ذقنه طويلة وشعره منفوش وليس في تقاطيعه شيء على ما يرام .

بعد قليل جاء ابن عناق مبتلا ، ينقط الماء من رموش

عينيه . خلع الكيس عن راسه ، وارتمى متهالكا على احد المقاعد وقال بعصبية .. انه غضب الله .. ثم وهو يمسح الماء عن وجهه بيديه كلتيهما :

ـ هذا شتاء لم تشهده نجران من عشرين عاما ..

ثم وهو يقف :

ـ ان كأسا من الشاي الساخن الان يا بوشنان يساوي الدنيا ..

ظل ابوشنان يضع رجلا فوق اخرى ويحدق بالسقف في شرود وظل زخ المطر ينهمر في خياله بلا توقف .. وفجأة هتف ابن عناق :

ـ يا بوشنان .. رجل بالباب يسأل عنك .

وقف رجل مسلح حافي القدمين بالباب وقال :

ـ يا بوشنان .. المستر يريد ان يراك في مكتب بوطالب .

اعتدل ابوشنان فبصق وسعل وقال :

ـ قل له سيأتي ابو شنان عندما يتوقف المطر ..

قال المسلح ذو الشعر الكثيف المنفوش كأشواك البلان:

ـ يريد المستر ان تأتي سريعا .

ـ حسنا انصرف انت ..

خرج المسلح فقام ابو شنان .. تبول .. ثم اغتسل ومشط شعره وشرب نصف ابريق الشاهي وركب في سيارة الروفر وألقى لابن عناق بورقة ذات عشرة ريالات..

★ ★ ★

دخل المفوضية المتوكلية فانحنى الحارس ، وعرفت قدماه طريقهما الى مكتب بو طالب . القاعة نفسها .. لم يتغير شيء .. على الحائط صورة الإمام ، وعلى الجانبين

صف من المقاعد الوثيرة ..

ودخل المستر من الباب نفسه الذي دخل منه بوطالب ذات مرة وكما فعل بوطالب ، جلس المستر وراء الطاولة المثقلة بالاقلام والرياش وأعلام المملكة .

خلع نظارته ثم بهدوء وهو يمسحها قال :

ـ تجاوزت الموعد المحدد لك في الاجازة .

لم يجب ابوشنان ، فقال المستر بالهدوء نفسه :

ـ بسبب المطر .. اليس كذلك .

ودون ان ينتظر جوابا استمر يقول :

ـ تذهب الى المعسكر فورا . لقد رفعنا الاستنفار الى الدرجة القصوى .

وأعاد نظارته الى عينيه واستطرد :

ـ الوضع حرج في جبال صعدة .. الامطار تعرقل حركة الامداد والتموين .. وسوف يتحرك الامير علي السميري هذه الليلة لتعزيز قوات بوطالب .

هز ابوشنان راسه فاستأنف المستر حديثه :

ـ يجب ان تعود حالا .. والآن تستطيع التحرك .

اطرق ابوشنان ، ثم رفع رأسه ببطء :

ـ يا مستر .. ابغي أطلب منك طلبا .. هل تحققه لي؟

حشى المستر غليونه بالتبغ وأجاب :

ـ اذا كان ذلك ضمن امكانياتي ..

ـ يا مستر ارجوك التدخل للافراج عن ابن امينة .

عبس المستر وقال :

ـ لا تفكر كثيرا في هذه المسائل ..

وازداد تجهما وقال كأنما يبصق :

ـ اذهب حالا .

وقف ابو شنان . حدق بعيني المستر بثبات وقال بهدوء :

ـ حسنا يا مستر ..

ثم استدار وخرج ..

★ ★ ★

عجلات السيارة تكاد تغيب في الماء المتجمع الذي تطفو على سطحه قطع الخشب والطيور الميتة والاوراق .. وعلى مدى البصر تبدو البيوت ساكنة والسماء الداكنة توحي بالعبوس والكآبة ..

والمساحة تصارع المطر بتواصل ويأس ، والناس يشمرون ثيابهم ويخوضون في الماء ، والاطفال يتعلقون بأكتاف الآباء ، والعسس يحملون المظلات ، وباعة المقلقل والفول يلبسون في رؤوسهم اكياس الخيش ..

وعطس ابو شنان واندفع بالسيارة التي اخذت ترشق الماء على الجانبين ، والآن .. الى حارة العبيد ..

غطست السيارة حتى منتصفها ولم يعد من الممكن السيطرة على المقود ورغم ذلك فان المحرك لم يتوقف .

ظلت السيارة تشق طريقها بصعوبة .. ومن بعيد كانت الامواج تملأ الوادي وتطفح على الجانبين .. ولم يكن يبدو من حارة العبيد شيء ، ولا حتى ذوائب اشجار النخيل .

اما ألواح الصفيح فقد قذفتها الامواج على الارض الرملية .. توقفت السيارة وتحولت عينا ابو شنان الى حلقتين من صمت ورصاص .. وظلت طيور سوداء كثيرة تحلق فوق الماء وتكاد اجنحتها تمس السطح المتموج ...

-١٦-

يوم آخر .. وطائرات تروح وتجـــــيء في السماء ، وضوء شاحب تسلل من طاقة في اعلى الجدار . ومن بين القضبان القى السجان ببعض الارغفة وحفنة من التمر . توقف الضرب والتحقيق وبدأ الدم فوق الجروح يتجمد . اقترب ابن امينة منه يمسك حفنة من التمر في يد ويضع رغيفا تحت ابطه الآخر ...

ـ كل يا اخي يجب ان نعيش .

امسك رافت بحبة تمر وضعها تحت اسنانه ، ودفعة واحدة هجمت عليه صورة امه ، تنتظر ساعي البريد الذي يهز لها راسه معتذرا فتسوي من وضع غطاء راسها الابيض وتغمض جفنيها على دمعتين ..

ـ السجن في بلاد الغربة مذلة .. اليس كذلك يـــا رافت ؟

اسند راسه للجدار وكان بعض المحكومين بالمؤبـــــد يتكومون بهياكلهم على الارض بلا مبالاة ويد ابن امينة عند

الرسغ تبدو ملساء وتبرز منها نتؤات وزوائد لحمية ..

ـ السجن هو السجن ..

رائحة البول والرطوبة والفضلات والقمل والوسخ الذي يتراكم فوق المسامات .. والانتظار .. آه .. الانتظار .. فمتى ينتهي الامر .

ـ يبدو ان المطر قد توقف ..

ـ وما فائدة ذلك .. طالما ان احدا لن يزورنا .

ـ والحرب في الجبال لا تتوقف .

ـ والشمس .

ـ الشمس .. آه .. كيف مذاق الشمس ؟

ـ صه .. خطوات الحارس تقترب ..

★ ★ ★

وقع الانفجار فزلزلت الارض زلزالها ..

وامتلأ الجو بهدير الطائرات النفاثة ..

وحدث انفجار ثان ، فالتصق السجناء برعب .

وتوالت الانفجارات ، فصاح ابن امينة من اعماقه :

ـ انهم يقصفون معسكر الحرس الوطني .

وفجأة شعر ابن امينة كما لو ان انفجارا وقع في راسه وتناثرت جمجمته الى شظايا .. وعندما رفع راسه كانت الاتربة ورائحة البارود تملأ الغرفة. حدق بوجه رأفت الذي وضع كفيه فوق راسه وزاغت عيناه هلعا ، وتنبه بعد لحظات الى ان القذيفة قد احدثت نافذة في الجدار وان حزمة من الشمس تسقط من خلال الدخان .

وقف ابن امينة وصاح بفرح وجنون :

ـ لنخرج من هذا القبر .

وشد رأفت من قميصه وصاح :

ـ هيا ...

وانطلق ابن امينة يعدو مغمض العينين ووراءه انطلق رافت يركض حافيا على الارض الرملية الحنونة ...

***

وقفا يلهثان .

ثم جثا ابن امينة على ركبتيه واستلقى رأفت على ظهره واسند راسه بكفيه المتشابكتين ومن ورائهما يندلع اللهب والدخان ، وتنزلق الطائرات في الفضاء ، تبرز من وراء التلال ، تغوص في الارض ثم تصعد ثانية وتتفجر الارض بالحمم والدخان الاسود ..

ـ علينا ان نواصل السير ..

ـ عطشان ..

ـ اعرف طريقا في منطقة (جربا) ، وهناك سنجد الماء والطعام ..

ـ انهم يقصفون تحشدات قوات الامام ..

ـ انهم يفتحون لنا الطريق ..

***

تمتد الارض الرملية التي سرعان ما تماسكت بعدما انحسر الماء ، تمتد الى مدى لا يدركه البصر وتبدو كما لو كانت تفتح فاها بشكل موحش ...

ولم يعد للطائرات صوت وثمة عقبان كثيرة تنعق في الجو وترفرف بأجنحتها السوداء وتهبط على فرائسها هبوطا شراعيا .. وعبر اشجار الاراك الجافة تتنقل بحركات سريعة السحالي والهوام .. والشمس في وجهيهما تماما ، صفراء كقرص كامل الاستدارة ، تتهيأ للمغيب وتلقي على

الاشياء ظلالا باهتة ...

وبارتخاء تنتقل أقدامهما المتورمة ..

ولا احد يتكلم .. يظللهما صمت وانهاك ..

غاص القرص الاصفر وبدأ الظلام يتسلل ..

وعندما اصبحت العتمة شديدة السواد قال رافت :

ـ لنتوقف ونستريح .

ولم يقل ابن امينة شيئا لكنه ظل يسير ..

وعاد رافت فمسح شفتيه المتشققتين وقال بصوت مالح :

ـ ابن امينة .. ما الذي حدث ؟

توقف ابن امينة هذه المرة وفكر قليلا ثم قال :

ـ حقا .. ما الذي حدث ؟

ثم جلس ... تمدد على الارض . قطع غصنا من الاراك واخذ يقضمه بأسنانه فقرفص رافت وعند ذلك قال:

ـ يبدو ان الطائرات جاءت لتقصف معسكر الحرس الوطني ولا بد ان القذائف التي سقطت علينا سقطت بطريق الخطأ ..

ولم يبد الآخر اية ملاحظة الا انهما وقفا معا في لحظة واحدة واستأنفا سيرهما ..

***

ـ انها صعدة ..

ـ غير معقول .

ـ أقسم بشرفي انها صعدة ..

مثل حلم لذيذ ذات ليلة دافئةتسرب الفرح والرهبة..

وانهمرا يركضان في المنحدر ، كحبات المطر التي تتدحرج في ذرات التراب .

-١٧-

المعسكر .....

استنفار ، وانتشار ، على التلال بين الصخور . داخل الكهوف .. ولا من احد في الغرف سوى عمال اللاسلكي . ثمة طائرة استطلاع تحلق على ارتفاع شاهق ، وتبدو كرأس دبوس ، وتترك وراءها خيطا رفيعا من الدخان الابيض ..

وأبوشنان يستلقي تحت ظل شجرة ، فيما تعالج ريتا علبة بلابيف وقد بدا على وجهها الارهاق والشحوب . اما النساء الاخريات ، فقد تم نقلهن الى قاعدة (خميس امشيط) بناء على أوامر المستر ..

قالت ريتا لاول مرة منذ اكثر من ساعة :

ـ اخبرني المستر ان الامير السميري قد وقع في الاسر .

أجابها ابو شنان ، دون ان تعقد الدهشة لسانه :

ـ كنت أتوقع ذلك .

افرغت محتويات العلبة في صحن ، واقتربت منه

اكثر :
ـ يا ابو شنان هل تعتقد انهم سيقصفون (ابوارشاش)؟
حدق بالرجل الاشقر الذي يقف قريبا منه وراء مدفع مضاد للطائرات ، ويموه رأسه بأغصان الشجر وقال :
ـ من يدري ؟
ـ الرجال اصبحوا عصبيين .. يعيشون حالة توتر وانتظار .. وقلق ..
ـ ....
ـ هل تشاركني الاكل .؟

***

بعد الظهر وقع عراك بين اثنين من المرتزقة فقالت ريتا:
ـ الم أقل لك ان الاعصاب متوترة ؟
وجاء اذ ذاك عامل اللاسلكي وهمس في اذن ريتا ، فقالت باندهاش :
ـ أوه .. غير معقول .. انهم يطلبون من طبيب المعسكر التوجه الى نجران للمشاركة في الاسعاف ..
رفع ابو شنان راسه وقال بصوت عال :
ـ ريتا .. ريتا .. استمعي الي جيدا . انني اكره نفسي ..
نظرت اليه باهتمام :
ـ لماذا ؟
ـ لانني أشترك معكم في لعبة قذرة .
امسكت بصحن فارغ أمامها وقذفته بعصبية وقالت بانفعال :
ـ انك تهينني دائما ..
استلقى ابو شنان من جديد واسند راسه على الارض

التي تنبت عليها اعشاب خفيفة، اما هي فقد نهضت ومشت بخطوات سريعة ..

***

المساء .. نقيق ضفادع ، وليلة بلا قمر .. وازيز طائرات يأتي من بعيد كلما نشطت الريح . يحدق (ابو شنان) في القمة ، وشبح الرجل ومدفعه المضاد ينتصبان امامه .. ومن وراء احدى الصخور يصفر احدهم بفمه لحنا ما .. وتصطدم علبة فارغة بالارض ويدخن رجل آخر سيجارة ، ويحاول ان يخفيها في كفه الاخرى .

وتستمر الضفادع في النقيق ..

ـ ابو شنان .. هل انت مستيقظ ؟

جاء صوتها من خلال العتمة ثم وجهت مصباحها اليدوي الى وجهه ، فرفع رأسه واستند بمرفقيه .. اطفأت المصباح وجلست الى جواره وقالت :

ـ انت تبالغ في القسوة احيانا ..

ثم اضافت :

ـ المستر أوصاني ان ابذل جهدي من اجل ارضائك .

سألها :

ـ لماذا يهتم بي المستر ؟

ـ انه يعلق عليك آمالا كبيرة ..

وعبرت مسامعها زخة من الرصاص فانتفضت ريتا والتصقت به اكثر :

ـ صوت رصاص .. ماذا يحدث ؟

ـ لعل احدهم اطلق النار على افعى او ضبع ..

أبعدها عنه ومسح شفتيه بباطن كفه ، وقال :

ـ اشعر بالظمأ .

وتوقف لحظات ، وأضاف :

ــ ولكن لماذا يهتم بي المستر كل هذا الاهتمام ؟

صمتت . لعلها اغتاظت ، ولم يستطع من خلال العتمة ان يقرأ ما يجول بخاطرها ، لكن صوتها ارتطم بأذنه :

ــ اسمع يا ابوشنان، يجب ان تعرف حجمك الحقيقي، انك تعطي لنفسك اهمية اكثر مما يجب .

كان صوتها صارما ، يخلو من الود .. ثم ماذا قال في نفسه ، فاستمرت بالصوت نفسه :

ــ رغم ذلك سأقول لك ، ان المستر سوف يرسلك في دورة تدريبية الى اوروبا ، انك لمحظوظ اذا أتيحت لك هذه الفرصة .. هل تعرف معنى ذلك ؟

ابتسم فجأة ، وقال بصوت هادىء :

ــ اسمعي يا ريتا ، لا داعي للنرفزة . سأقول لك باختصار .. انني أرفض ذلك .. أرفض ان أستمر ..

قالت بمزيد من الغضب :

ــ لماذا ؟

اجاب بالصوت الهادىء :

ــ سأقول لك لماذا ... لقد شاهدت عندما كنت أعمل في الدمام فيلما امريكيا يذهب بطله الى افريقيا ويصطاد وحيد القرن ..

ــ ولكن ما علاقة ذلك بموضوعنا ؟..

ــ ارجوك يا ريتا استمعي لي حتى النهاية .. ان مشكلة الصياد الامريكي تبدأ من اللحظة التي يوقع بها وحيد القرن بالشرك .. فوحيد القرن لا يستسلم بسهولة. انه يندفع بكل الاتجاهات للتخلص من الشباك ، انه ينطح الهواء ، ويرفس الحبال ، ويملأ الفضاء بغضبه وهياجه .. ويتمكن الصياد بمعاونة رجاله وسياراته من تقييد وحيد القرن وشحنه في الباخرة الى الولايات المتحدة .

ـ واخيرا ..

ـ اخيرا يبيع الصياد وحيد القرن الى حديقة حيوانات وهناك يعمل المروضون على ترويضه وتدريبه واستئناسه وبعد شهور طويلة يصبح وحيد القرن داخل القفص المخصص له وديعا .. انيسا .. صامتا .. يتجمهر حوله الناس ، ويلقون اليه بالفتات .

ـ انك تحكي اشياء طريفة ..

ـ وقد لاحظ الحارس ذات مرة ، نوبات حادة تصيب وحيد القرن بين حين وآخر ، فيندفع بقوة ينطح الحديد ، ويرفس الهواء ويملأ الفضاء هياجا ثم يهمد فجأة ، يستلقي على الارض وعضلاته ترتجف ، ويختلط القذى بالدموع حول حدقتيه ..

صمت ابوشنان لحظات لعله كان يفكر بالنشيج ، وفجأة ضرب الارض بقبضته ، وصاح :

ـ أتدرين لماذا كانت تأتيه النوبة ؟ لان وحيد القرن غير المدجن النائم في أعماقه يستيقظ بين الحين والآخر .. انه يشتاق الى افريقيا .. الى المستنقعات والشلالات واشجار الجوز والامسيات الاستوائية ..

ومرقت موجة من الهواء البارد ، وتحركت اغصان الاشجار القريبة ، فمسح وجهه بكفه ، واستمر يقول كأنما يحدث نفسه :

ـ انه يشتاق الى البحيرات .. وطبول القرى .. والخلاء ..

وقفت فجأة بنزق وعصبية ، اضاءت المصباح ومشت تاركة خلفها المزيد من الصمت .

-١٨-

عن واحد من سكان الاخدود عن اولاد الحصري ، عن مدير المدرسة المتوسطة ، عن الغامدي ، عن ابن عناق ، عن رباب ، عن مدير مكتب بوطالب ، عن الحارس عبده الـذي اصيب بجراح طفيفة ، انه قال : هرب ابن امينة ومعـه رأفت العدني ، وانهما توجها الى الجمهورية ، وتكلما مـن اذاعة صنعاء ..

«رواه الولد عبد المعطي الى سمية .. همسا» .

***

حدثت اضطرابات اخرى وجاء المزيد من الجثث الى مستشفى نجران ، وانفجرت قنابل موقوتة في المفوضية المتوكلية ، وعاد بوطالب مثخنا بالجـراح بعد ان فشلت الحملة ..

وظلت الطائرات تنزلق في الافق بلا توقف .. وغادر

الغامدي نجران الى بلاد بني غامد ، وغالية السميري وخادمتها رباب الى قصر الكندرا في جدة ، ونساء الامير الى القصر الصيفي بالطائف ، ورئيس جمعية الامر بالمعروف الى مزرعته بالقصيم في نجد .

***

ثمة حمار يمرغ نفسه بالتراب ، وكلاب تنهش جيفة تنبعث لها رائحة كريهة وجرذان تخرج من جحورها في الساحة الخالية من الناس والحبوب والمساويك وخيزرانات المطاوعة .. سطعت شمس حارة، وانبعثت رائحة النفايات والماء الآسن واكتست النوافذ بطبقة من الغبار وختم دكان رافت بالشمع الاحمر ...

وقبع قاضي القضاة الذي لا يزور ولا يزار في بيته ، وسلم امره الى الله ، وظل ابن عناق يحدث نفسه حينا ويحدث الطاولات احيانا اخرى .

***

جاء من اقصى المدينة الولد عبد المعطي يهرول، ويقبض على طرف ثوبه بأسنانه وقد تدلت دكة سرواله الفضفاض. مرق على مطعم الحصري وسأل (الشيبة) الذي يجلس وراء طاولة الدفع :

ـ هل جاء عندكم ابو شنان ؟

فرفع الشيبة حدقتيه وأجاب :

ـ تغيرت الاحوال ..

قبض على ثوبه من جديد ، واستأنف الهرولة ...

واخيرا توقف امام المفوضية المتوكلية .. عند الباب

كانت سيارة اسعاف ، وبعض الرجال يحملون الجرحى والحارس يفشل في دفع الناس المتحلقين وابعادهم ... اقترب من رجل يحمل في يده حفنة تمر ولا يتوقف عن الاكل ..

ــ ابغي اشوف ابوشنان .

بصق الرجل النواة من فمه وقال :

ــ موجود في الداخل عند المستر ..

اقترب من الحارس الذي كف عن دفع الناس وسأله:

ــ ابغي اشوف ابو شنان طال عمرك .

اطلقت سيارة الاسعاف ابواقها العالية ، فابتعد الناس ، وثارت زوبعة من الغبار وانطلقت السيارة بأقصى سرعتها ..

دعك الولد عبد المعطي عينيه وقال من جديد :

ــ ابغي اشوف ابو شنان ..

سأله الحارس بغلظة :

ــ ماذا تريد من ابو ....

وتوقف عن الحديث فجأة ، اذ جاء هدير طائرات قادمة من مكان ما ....

وتنبه الناس المحتشدون الى اصوات الطائرات فانطلقوا يهربون في شتى الاتجاهات . وصاح الحارس به في عصبية :

ــ اذهب من هنا ايها الاحمق ....

استدار الولد عبد المعطي ومشى بخطوات سريعة واقتربت الطائرات اكثر فأكثر فهرول ثم وجد نفسه يركض بين عدد من الناس ... سقطت القذائف في مكان ما حول المدينة واحس بالارض ترتج تحت قدميه ، وسمع صراخا حادا من حارة قريبة ، وخلا الشارع من الناس ولم يبق سوى جحش صغير يرمح ويرفس الهواء ....

واختفت اصوات الطائرات فجأة وظلل الكون صمت مطبق ، ولم يطل احد ما من نافذة من النوافذ التي تفغر افواهها ... ومشى الولد عبد المعطي حافي القدمين وهو يحس بالتعب والجوع والظمأ ، فوقع بصره على مقهى ابن عناق ....

على الرصيف تصطف سيارة روفر عسكرية مكسوة بطبقة من الغبار ، أحس بالانتعاش اذ حدس على الفور انه وجد ضالته اخيرا ...

وهناك كان يجلس ابوشنان على الاريكة يقرقر في النرجيلة بصمت ، فيما يجلس ابن عناق على الارض وقد بدا وجهه شاحبا وشديد اليأس .

صاح الولد عبد المعطي بصوت عال :

ـ يا ابو شنان .. اين انت ؟

هب ابو شنان واقفا .. وعانق الولد عبد المعطي واجلسه على الاريكة ونهر ابن عناق وشتمه لخوفه وجبنه وطلب منه ان يصنع الشاهي .

ـ اين انتم .. كيف الناس .. كيف حبوبتي سمية ؟

صمت الولد عبد المعطي وتجمعت على وجهه دفقة بكاء ولكنه لم يفعل .

ـ قيل لي انكم تقيمون الان في الاخدود .

هز الولد عبد المعطي راسه وقال :

ـ هذا صحيح ولكني لا اريد ان اخوض معك في كيف الحال وكيف الصحة . هناك موضوع هام جئت من اجله .

اقترب براسه اكثر وتساءل :

ـ ما هو ؟

تلفت الولد عبد المعطي حواليه ، ثم قال بصوت منخفض :

ـ جاء سائق سيارة شحن من جدة وسأل عنك مرات

عديدة .

سأل على الفور وباهتمام :

ـ وماذا يريد ؟

عاد الولد عبد المعطي يقول بالصوت المنخفض نفسه :

ـ في المرات الاولى سأل عنك ولم يقل شيئا ولكن في المرة الاخيرة كان نوع من الصداقة قد نما بيننا فوثق بي واخبرني عما يريد ..

تلفت الولد عبد المعطي حواليه مرة اخرى وهمس :

ـ انه قادم من طرف مشعان .

ـ مشعان ؟

مشعان .. مشعان . الخبر .. الدمام .. الشرقية .. النقابة والنضال ، والمنشورات السرية .. السجن والمنفى والقمع .. والسنوات الطويلة التي أمطر وامطر عليها النسيان ..

وعاد الولد عبد المعطي يهمس :

ـ يقول لك انه خرج من السجن حديثا ويريد ان تقابله في جدة .

أشعل ابو شنان سيجارة وشرد قليلا .. الدمام .. نقابة العمال .. الصدام بين العمال والمدير الامريكي ، واكعاب البنادق التي تفلق الرؤوس ..

والاعتقال والفصل ، ومشعان الذي يتوهج حتى من وراء القضبان .

ـ مشعان ... مشعان .. ايها العزيز الذي لا ينسى.

ـ ماذا تقول يا ابو شنان ؟

أسند رأسه بين كفيه وجاء ابن عناق يحمل صينية الشاهي وهو لا يكف عن الارتعاد ...

-١٩-

ملأت الشائعات المدينة ...

وقصفت الطائرات قصر الامير في صعيد المطار، وتناثر مشوهو الحرب في الشوارع يتعاطون التسول وبيع الاجندة والرصاص الفارغ وأحذية المطاط . وحدثت عمليات سطو ونهب في وضح النهار ، ولم يعد للمطاوعة من وجود في الشوارع في الليل .

وذات ليلة وجدوا بعض الجثث ملقاة على الارصفة وتكومت النفايات والقاذورات في كل مكان ، وأصبح منزل السميري مكانا للتبول ومطارحة الغرام مع الغلمان . وشاعت أخبار عن دخول مجموعات من قوات الجمهورية للاستطلاع والهجوم وكبرت الشائعات حتى ان ابن عناق اصبح يرتعد من خياله ، وقاضي القضاة الذي لا يزور ولا يزار ، ركب عربة تجرها الخيول وانطلق مع الخيوط الاولى

للفجر باتجاه (ابها) .

***

ويقولون في مقهى ابورمش ، ان الزبال (عباجة) الذي هام على وجهه في البراري وسكن الكهوف في الجبال ، اقترب ذات ليلة من معسكر (ابوارشاش) ، فانتهره الحارس الاجنبي ، ولما لم يقف اطلق عليه النار بغزارة ، فسقط يتخبط بدمه .

ويقولون بأن جثة (عباجة) وضعت في احدى الكهوف القريبة ، فانتفخت ، وأخذت تنبعث لها رائحة نتنة ، واخذ ينغل فيها الدود ، ويقولون بأن المستر ارسل عددا من رجاله يحملون اجهزة طبية ، فنزعوا بقايا اللحم عن العظم ، واحضروا الهيكل العظمي الذي احتفظ به المستر في منزله .

***

وفي مقهى ابو رمش يجلس الزيدي على الارض مادا ساقه الوحيدة بعد ان بترت ساقه الاخرى وكان يحك ذقنه الكثة وقد احمرت عيناه كجمرتين . وقال له الولد ابن عناق : وماذا حصل بعد ذلك ؟

حدق بالعيون التي تتعلق به وهز راسه وقال :

ـ بعد ان صعدنا قمة الجبل ، صعد بو طالب الى قمة صخرة ، وخلع حذاءه ورفعه عاليا وقال : هذا الحذاء بذقن كل من يهرب من المعركة .

ثم أشهر مسدسه وبدأ القتال ، فانهمرت القذائف وامشاط الرصاص ، ثم لاحت الطائرات في الافق وبدأت

تقصف .. واخذ اللحم يلتصق بالصخور، وقبل ان تخترق الشظايا ساقي شاهدت بو طالب يولي الادبار حافيا .. ثم دفن الزيدي وجهه بين كفيه وأجهش بالبكاء .

ولم يعد العسس يقفون عند نواصي الشوارع ، فقد اشيع ان أشباحا قادمة من الجنوب تجز رؤوس العسس ، وتسلخ فراوي رؤوسهم ، وقد اصبح الصباح ذات يوم واذا بثلاثة رؤوس معلقة على اعمدة الهاتف على طريق نجران — الموفجة .

***

وقيل ان جرذا بحجم القط هجم ذات ليلة على عائلة بأكملها ، فعضها في اماكن مختلفة فأصيبت بالطاعـــون واحرقت جثثها سرا في احد اقبية المستشفى .

ولم يعد المستر يظهر في المدينـــة الا في النهار ، وبصحبة اربعة من الحرس .. اما ابو شنان ، فلم يرجع الى المعسكر ، وعاد مرة اخرى الى التسكع وشرب الشاهي في مقهى (ابن عناق) .

وأما في الليل ، عندما يتمدد على المقعد الطويل ، فان صورة مشعان كانت تساهره وتلح عليه بالسفر ....

/

-٢٠-

ضوء شحيح وسط عتمة صحراوية ، جمرات قليلة فوقها كبسة زر تنضج على مهل واحدهم من مكان ما يغني بصوت حزين ، ويظلل الجلوس صمت جليل ..

أشعل ابو شنان سيجارة وأسند ظهره الى عجل السيارة الكبيرة وأخذ السائق يملأ المطرة من الخزان ، بينما كان الولد عبد المعطي يقرفص مسندا ركبتيه الى ذقنه .

وفي الاعالي كان قمر وليد ، ونجوم مفرقة في بعدها .. ورائحة الاراك تأتي عبر نسمات تنشط بين حين وآخر ، وعبر العتمة التي توغل في العمق ياتي عواء ذئب .. ويبعد ابو شنان بيده الحشرات المضيئة التي تحط على ثيابه ، ويدخن بلا توقف وتتوه نظراته في التيه الاسود البعيد ... وفجأة يتلفت الى السائق ويقطع الصمت قائلا:

ـ سوف اذهب معك .

يرفع الولد عبد المعطي رأسه ، ويحافظ السائق على صمته ويرفع غطاء الطنجرة ، ويحرك الطعام ، فيعاود ابو شنان القول :

ـ سوف أسافر معك .

ويتساءل الولد عبد المعطي :

ـ والمستر وبوطالب وتلك المراة النصرانية ؟

لا يجاوب ، ويغطي السائق الطنجرة ثم يرفعها عن الحجر ويقول :

ـ نضج الطعام .. هيا ..

تمتد الايدي الى الطعام .. يملأ ابو شنان قبضته بكبسه الرز . يضغطها . ويرفعها الى فمه يأكلها بشهية . ويتساءل الولد عبد المعطي الذي خطر له ان يقوم فيرقص رقصة الطبول ويغني دان .. دان حتى الصباح :

ـ ويفرح الناس في الحارة ..

ثم يقف ويقفز في الهواء .

ـ وتفرح أمنا سمية .

يجذبه السائق . ويقول وهو يمضغ :

ـ كل .. وحذار ان يسمعنا احد .

يمد ابو شنان يده بقطعة لحم كبيرة ، يشد السائق طرفها فتنقسم الى نصفين . يقول عبد المعطي وهو يمضغ اللحم بشرود :

ـ مسكين ابن امينة .

ثم كانما يغص :

ـ لقد قضم قطعة صغيرة من اللحم النيىء .. قطعة صغيرة ليس غير .

فيقول السائق وهو يلحس الرز عن اصابعه :

ـ انه الان هناك . يشرب ابو شنان من المطرة حتى الارتواء ثم يتحدث كأنما يخاطب نفسه :

ـ لا اريد ان أفكر في شيء .. فقط اريد ان أرحل.

ويقف الولد عبد المعطي :

ـ والآن ، أستأذنكم في العودة الى البيت .

ابو شنان ، بشرود :

ـ والعسس ؟

الولد عبد المعطي :

ـ في مثل هذه الساعة يلوذون بالفرار .

يقف ابو شنان :

ـ حسنا .. سآتي معك لوداع سمية .
السائق يتثاءب :
ـ نغادر غدا بعد صلاة العصر ..
يهز ابو شنان راسه ويمضي ..

* * *

بدأت خيوط الفجر تتسلل ..
ودلف شبحاهما عبر تلة تشرف على الاخدود ..
بيوت التنك نائمة ، والاقدام تتعثر بالفشك الفارغ ، والشظايا المتناثرة ..
قال ابو شنان : اشعر بخوف .
الولد عبد المعطي : لماذا ؟
ابو شنان (بقلق) :
ـ هل تمد لي جدائلها لتنتشلني ؟
الولد عبد المعطي :
ـ انها الان راضية عنك . لقد أبلغتها عن لقائنا الاول بالسائق ..
بدت طيور القطا مثقلة الاجنحة بالندى واخذت تخرج من بين الاشواك ، وتركض على الارض باختيال لدى سماعها دقات الاقدام ..
واقبلت قافلة من باعة القضب مع بهائمها وملأ روث البهائم رائحة الطريق التي تترك عليها سيارة مرقت في وقت ما آثارا على الجانبين ..

* * *

من بعيد ظهرت الام سمية تخبز الرقاق على الصاج وقد تصاعد من حولها الدخان وتكوم الى جانبها بيدر من

القش .

توقف ابو شنان .. شعر بالحنين ، وبرشق المطر ، وصليل السيوف لدى ارتطامها بعظم الرقبة .

ـ لماذا وقفت ؟

الدمعة ، السيف ، الرغيف ، الشهـــــوة ، الظمأ ، الذبول ، والعيون الفاترة ..

ـ لماذا وقفت ؟

الرمال تركب الريح عبر الربع الخالي ، وريح السموم تخرج من عب السديري ، والمستر كالحواة يخرج من فمه أمشاط الرصاص ، والحزن ثقيل لا يطاق ...

ـ لماذا وقفت ؟.

اغمض عينيه نصف اغماضة ، يغمر الاخدود بحر من السراب ، فمتى من شدة الالم والقهـــــر تنبجس الارض وتزلزل زلزالها ؟

ـ انظر أمنا سمية ..

ـ سمية أمنا القاسية ، ليس لديها سوى الحنــــان والدموع .. ايها الولد عبد المعطي قبل مئات السنين وفوق تلك الحجارة أحرق ذونواس آلاف الناس الذيــن رفضوا اعتناق اليهودية وكانت امنا سمية هناك .. وكانت تفعل الشيء نفسه ، تحزن ، وتبكي ، وتتمنى الا يحدث ذلك...

ـ ابو شنان .. ما اظن انك ثمل .. ماذا تريد من أمنا سمية ان تفعل ؟

احمرت عيناه حتى تحولتـــــا الى جمرتين وعبست ملامحه كما لم يعبس من قبل وشد قبضته بقسوة الـــى درجة التشنج ، وقال كأنه يتقيأ السلاسل والجنازيـــــر والصدا :

ـ كان عليها ان تنتزع بقبضتيها خصيتي ذلك الامير الذي انتزع خصيتي حبيبها .

-٢١-

اطمأن السائق الى ان كل شيء على ما يرام وصعد امام المقود ، صعد ابو شنان الى جانبه وبدات المحركات تعمل . . .

الان حدث نفسه . . . انه السفر . .

اوّح الولد عبد المعطي بيديه كلتيهما . . مشت السيارة . . لوح ابو شنان بيده . مرقت عبر النافذة الاشجار واسراب من العصافير وعدد من العمال يحملون السلال على اكتافهم .

ـ **اين طريقنا . .**

ـ الى الصعيد مباشرة ، ثم نأخذ السيارة الى ابها .

ـ ارجوك . . نعود قليلا الى نجران .

ـ لا استطيع . . مشعان طلب الا يراك احد لدى المغادرة .

اسلاك اعمدة التلفون ، وطيور القطا ، والسماء فقط . . ومحركات السيارة تهدر والسائق يلف الفترة الحمراء حول

راسه .. ونجران تبتعد ، وتطل الجبال الجرداء .. الصخور المسننة .

هنا سقطت طائرة بن لادن ، هنا كان لحم ريتا يلتصق بلحمك . والمستر يضع على عينيه نظارة سوداء والكابوس يجثم فوق الصدر بكل ثقله .. وأبو ارشاش يفور بالرغوة والويسكي ..

قال له السائق : ثمة طائرة استطلاع تحلق فوق الصخور .. استدارت السيارة فسقطت حزمة من الشمس عبر الزجاج .

أغمض ابو شنان عينيه وأسند راسه الى ظهر المقعد .. ومن جديد حدث نفسه .. انه السفر .. السفر .. السفر .. متى تتصلب قشرة الارض ، ويصبح بامكان القدمين ان تقفا بثبات .. واحس بدوار وبرغبة في كأس واحدة .. واهتزت السيارة ، ففتح عينيه وأطلت عليه عبر الزجاج الصخور المسننة نفسها ، وطائرة الاستطلاع التي تبدو بحجم راس الدبوس .

فأغمض عينيه مرة اخرى ... ولعله أغفى ..

وإذ ذاك ، حلم بأن المستر يؤنب ريتا ، وبو طالب يصدر أوامره الى العسس لاحضاره حيا او ميتا ، ويقول الناس في البيوت : ابو شنان اختفى .. فأين ذهب ؟

وأشجار النخيل في حارة العبيد تجود بالبلح ويعود الفرح الى بيوت التنك بفزارة ....

وأخرج ابو شنان رأسه من نافذة السيارة وأطل الى الخلف .. كانت نجران تبتعد .. تبتعد ....

-٢٢-

مشى الولد عبد المعطي وثوبه الفضفاض يهفهف واصابعه تعد الريالات الثلاثة في جيبه . وفي الساحة التي خف ازدحامها بعد القصف كان عدد من الناس يتحلقون حول المطاوعة الذين يجلدون بالخيزران شابا يتمدد على بطنه .

وعلى أسطح البنايات القريبة كان عدد من النساء يطل من وراء الاغطية السوداء .

قال الولد عبد المعطي للحصري : ماذا فعل ؟

اجاب الحصري وهو يمسوك اسنانه : وجدوا بحوزته زجاجة كونياك .

قال بائع متجول ترك الجدري آثاره على وجهه :

ـ وقد اشتراها من خادم سرقها من قصر الامير .

جلس على الرصيف في الظل امام دكان الغامدي وظل يرقب ما يدور امامه من بعيد ..

مرق من امامه بعض المسلحين ونظروا اليه شزرا ، كما

مرق واحد من العسس يتلثم بالفترة ويظل المسدس من تحت ابطه .. ونظر الى ساعته فوجدها العاشرة بالتوقيت الزوالي فشرد لحظة .. ولعله فكر قليلا في المكان الذي وصله الان ابو شنان .

ومرقت سيارة ونيت يفتح سائقها الباب وينادي على الركاب المسافرين الى (حبونة) . وعند ذلك لمعت في ذهنه فكرة السفر .

نظر الولد عبد المعطي الى الجبال العالية التي تسد الافق وتذكر عندما كان في طفولته يرقب الطيور التي تصفق بأجنحتها في الفضاء ويظل بصره متعلقا بها حتى تغيب عن ناظريه وراء الجبال السوداء ..

فقال مره لابيه أريد ان اطير ، فمسح (الشيبة) على رأسه برفق وقال له : «ما تزال صغيرا على الطيران يا بني » .

تحسس من جديد الريالات الثلاثة في ثوبه ووقف . مشى في شارع الزيود الذي يكاد يخلو من المارة .

التقى بواحدة من بائعات القضب سألته ماذا يفعل ، فقال لها انه يتسكع بلا هدف ، توقف على الرصيف وأكل صحنا من الفول الممزوج بالسمن وشرب ابريقا كاملا من الماء .

ومرقت سيارة ونيت اخرى ، يبرز سائقها رأسه من النافذة وينادي على المسافرين الى (الموفجة) .

ومن جديد رفرفت في أعماقه الطيور المسافرة .. وتذكر يوم ان تعلق بسيارة مسافرة الى بيت الله الحرام في موسم الحج الفائت الا ان المطوف عاجله بصفعة . جعلته يسقط على الارض ، وتصاب ساقه ببعض الرضوض .

ـ يا ولد يا عبد المعطي ..

نظر حواليه فوقع بصره على (الزيدي) يقترب بعكازين

وساق مبتورة :

ـ هل رأيت ابو شنان ؟

لحيته كثة ووجهه مكدود وعلى ملامحه آثار الحرب.

ـ لا .. لم اره .

هز الزيدي راسه واسند أبطيه وغرز العكازين بالارض وأخذ يجذف .. ويجذف .. شيعه بنظراته الى أن طواه الشارع .. ثم نظر الى ساعته مرة اخرى . كانت قد اصبحت الثانية عشرة بالتوقيت الزوالي ، فخطر له اذ ذاك ان (ابو شنان) قد اصبح على ابواب جدة .

ورفع بصره الى السماء يرقب طيورا، تصفق بأجنحتها في الفضاء الواسع .. الرحب وتبدأ السفر .

وإذ ذاك قرر العودة الى الاخدود ..

***

وجدهم يتكومون حول كوخ سمية ، وكانوا يتحدثون جميعا في وقت واحد ، فتختلط الاصوات ببعضها البعض ويزداد الامر تعقيدا وغموضا .

شق طريقه وسط الحلقة ، وأصاخ السمع ، قالت له سمية :

ـ انهم يريدون ان يرفعوا التماسا الى امير الاخدود لكي يبقينهم في اراضيه .

ثم رفعت صوتها الذي يتشابك مع اصوات اخرى :

ـ كيف نرفع لهم التماسا .. سنظل في هذا المكان غصبا عن السديري ، لقد اغرقت السيول اراضينا وبيوتنا .. فبأي حق يطردوننا من هذا المكان ؟

وبدأ احدهم يأخذ بصمات الحاضرين فصاحت سمية:

ـ انا لا ابصم ..

ووقفت، وشقت طريقها خارج الحلقة، فلحقها عبد المعطي:

ـ الى اين يا أماه ؟

قالت بعصبية : أريد ان اجلس مع نفسي في الخلاء .

مشى الى جانبها ، وعندما ابتعدا ، قال لها :

ـ انه الان على مشارف جدة يا اماه .

تغيرت ملامحها فجاة ، ولمعت على وجههـــا اشراقة . كأنما انطلق عصفور من بين الاغصان ، فهزت رأسها وبدأت تتمتم ، فقال :

ـ آه .. كم اشتاق للسفر ورؤية العالم .

قرأت بصوت عال :

ـ فسبح بحمد ربك انه كان توابا .

عرف انها تقرأ الآيات من اجل ان يحفظ الله ابو شنان، فصمت ، وعندما انتهت ، عاد يقول :

ـ أريد ان أسافر يا اماه ..

توقفت ونظرت اليه بلهفة :

ـ السفر.. السفر.. كلكم تسافرون، فمن يبقى هنا؟

حك رأسه وعدل من وضع طاقيته ، وأجاب :

ـ أريد أن أسافر وأبحث عن عمل .. أريد ان ارى الاشياء التي وراء تلك الجبال يا أماه .. اريد ان اعـــرف المدن وأركب الطائرة وأشاهد انوار الكهرباء ، وأتفرج على البحر والسفن . ظلت تنظر اليه بلهفة ، ثـــم قالت بنبرة حزينة :

ـ انها نفس الكلمات التي كان يقولها اليامي .. ولكنه كان يغيب ويغيب ثم يعود .. انتم يا ابنائي تختلفون ..

ثم بعد صمت قليل :

ـ انتم ايها الابناء لا تبصون بالابهام ، ولا تلتمسون من الامير البقاء .. انتم تحبون هذه الارض المسروقة وانـــا مثلكم احبها ، ومثلكم احب السفر ، فلماذا لا ادعكـــم تسافرون ؟

-٢٣-

عرق وتراب ، ولزوجة في الجفون والزجاج يسببه الغبش ، والفترة على راس السائق اكتست بالغبار والرمال الناعمة .

العرق والتراب ودوار في الراس ورغبة في التقيؤ ، وطوال الطريق مثلجة في غربال.. حدث نفسه ابو شنان وقدم السائق اليه سيجارة ، فلم يأخذها .

واطلت من بعيد من وراء السراب والغبش . المدينة ، كأنها تغوص في الماء . فضحك السائق :

ــ انها جدة .. ها قد وصلنا .

وناوله السائق مطرة الماء وهتف به :

ــ اغسل وجهك .

ثم أدار المذياع فجاء صوت طلال مداح (طال الجفا .. جفا .. جفا والهجر طال) .

اقبلت رائحة البحر والرطوبة .

وأقبلت رائحة الغربة والسفر وأشياء صغيرة .

ـ ما ابعد جدة .. كأن السيارةترجع بنا الى الخلف!!

حل الظلام وانتشر ضوء السيارة على الاسفلت الذي يسوخ لشدة الحرارة ، وعلى طول الطريق المعاكس ظلت تطل أضواء السيارات من بعيد ثم ما تلبث ان تمرق كلمح البصر .

فرك ابو شنان عينيه ، واقتربت اضواء المدينة اكثر فاكثر ، واخذ الشارع يتسع ، كما اخذت تبدو على الجانبين السيارات الفارهة .

ـ انها جدة ..

الاضواء تتوهج ويقترب البحر والفيلات الخاصة والعمارات والناس واشارات المرور . توقف السائق قرب الشاطيء وقال مشيرا الى بناء قريب :

ـ هناك فندق النهضة . تنام ليلة واحدة وغدا يأتيك شنان .. هل تحمل نقودا ؟

هز راسه بالايجاب فودعه السائق بحرارة وصعد الى سيارته . وغاب ..

***

من نافذة الفندق ، تطل على البحر ..

رائحة الزنخ والاملاح تنفذ بشدة ، والرطوبة تجعل ثوبك يلتصق بجلدك . وصفارات السفن الراسية ، ومراكب الصيادين التي تتهادى على الماء بلا اكتراث، وارتطام الامواج بحاجز الاسمنت ..

تختلط الاشياء جميعا ، ورغم الدوار فان الدمام تعود الى الذاكرة بشكل طازج . يخلع الخليج عباءته وعقاله المقصّب ، ويتناسل سمك القرش في البحر الاحمر ، وتهجم الوساوس والرعب الخفي . ويطفو الزيت والغاز

والنار الدائمة ، والحلقة التي تتسع في الماء الراكد تتكاثر وتتلاشى ..

ومن غيرك يا مشعان يستطيع ان يشعل الافكار ؟

تطلق سفينة ما صفارات الرحيل ..

وأنت مثل بحار يبتعد عن اليابسة وفي غربته ليس ثمة سوى البحر وطيور النورس والانواء .. والليـــل الطويل .

وفي الغرفة تدور المروحة في السقف بلا مبالاة وتعجز عن طرد الرطوبة والحر الشديد . تخلع ثيابك ، تعود الى السرير ، تتمدد عليه ..

تحاول ان تغفو تحلم بانك تتحول الى شظايا كالزجاج، تلملم نفسك سريعا وتصحو .

ينقسم الرجل المتزمل في ثيابك الى أقسام اربعة .

تاتي ريتا من الشمال وياتي المستـــر من الجنوب . ويرفع السياف حديده الصقيل ، وتهجم اشجار النخيـل على المدينة ، وينبجس الاخدود بالعظام المتوهجة ، ويقبل الفقراء من أطراف مكة ، ويفتـــك (ابن جلـوى) بالاسوار والنساء . ويفتح العبيد صدورهم للرصاص ، ويهدي امير تبوك الى امير القنفذة كلابا للصيـــد ، وتشتري الاميرات العطور من باريس .

وتعبس الدمام ، ويجري الغضب في عروقها، ويشتعل فيها التوهج والحريق والضوء الخافت .

وعلى امتداد الخليج ، تزدحم ناقلات النفط .

-٢٤-

هذه جدة .

الشوارع ، السيارات ، الواجهات ، والمطاعم الفخمة.

والابواق لا تتوقف .

وتعبر نساء اوروبيات الشارع ، يرفع شرطـي المرور يده فتنطلق السيارات عبر اشارة المرور كأنها تتسابق . العرق يتصبب من الوجوه ، والشمس ساطعة . والمآذن عالية ، ووراءها بيوت من نمط قديم .

ولا يبدو للمطاوعة من اثر ..

شعر بالجوع . فأكل صحنا من الفول ، ثم نمشى في سوق الاقمشة . وتلصص على النساء اللواتي يغطين وجوههن بأغطية شفافة للغاية ، ويتلفعن بالعباءات السوداء، وحدق بالباعة الذين تنتمي وجوههم الى بخاري واندونيسيا .. شعر بالتعب وبالارتخاء . جلس في مقهى على مقربة من حي شعبي . قرقر بالنرجيلة .. تذكر ابن عناق والزيدي ووجوها اخرى . أحضر له الخادم ابريق

الشاهي . فناوله نصف ريال . ظل يقرقـــر بالنرجيلة ، وازداد العرق الذي يتصبب من الوجه والرقبة والابطين .

وتمرق سيارة فارهة تتهادى في خيلاء فـي الشـارع الضيق ، ويمرق عدد من الشرطة ، وباعـــــة الامشاط ، والمرطبات .

يزداد التصاق الثياب باللحم .

***

وقف ..

تسكع في الشوارع التي يجهل اسماءها .

تفرج في الواجهات على الخواتم ، الالماس ، زجاجات العطور ، الحقائب الجلدية الفاخرة ، الملابس الافرنجية ، أقلام الباركر ، السجاجيد العجميـــة ، الرياش الملونة ، لوحات الكنفاه ، علب الحلوى ، الساعات السويسريـــة ودراجات الهوندا .

واشتدت الرطوبة ، وجفاف الحلق ، وسيلان العرق.

وقع بصره على مكاتب الخطوط السعودية ، فوقف ينظر عبر الزجاج الى السكرتيرات والموظفين الذين يرتدون القمصان البيضاء ذات نصف الكم .

وكان يملأ القاعة عدد من المسافرين .

فتح الباب ، ودخل ، فأفعم صدره بردا وسلاما .. واستنشق بحيوية الهواء المكيف وفي أعماقه تساقط الرذاذ والندي والفجر الهاديء .

جلس على مقعد اسفنجي ، وغاص به ، واستنـــــد بظهره ، واخذت عيناه تحدقان من جديـــــد بالسكرتيرات والموظفين والمسافرين ، وصورة الملك والديكور الشرقي ، وألوان الحائط ، والاعلام ، ونماذج الطائرات ، والروزنامات

الاوروبية ، والساعة الكبيرة التي تنبيء عن الوقت بالتوقيت الغربي . وعندما عطش تناول ابريق الماء المثلـــج وشرب ، فهطل المزيد من الرذاذ والانتعاش . واستدار العقرب دورة كاملة .

— . . . .

. . . .

خرج ، فهاجمه التوهج والحر ودبق ارطوبة . مشى الى الفندق ، سأل الموظف ان كان احـــد قد سأل عنه ، فنفى . دخل غرفته التي تشبه الاتون ، وضغط على زر المروحة فاستدارت ببطء في البداية ، ثم ما لبثت ان دارت مسرعة طاردة الذباب والدبابير .

خلع ملابسه وجلس على حافة السرير ومن النافذة اطل البحر والسفن الراسية والطيور التي تحوم في السماء ، ورائحة الزنخ والقاذورات التي تطفو على سطح الماء . تمدد على السرير ، وأغمض عينيه . هجمت الدمـــــام والخبر ووجوه العمال السمراء ، والنقابة السرية ، ومشعان يخرج من بين الآلات ، يلبس خوذة واقية على رأسه ، ووجهـــه يغيب في الشحم والزيت وشعر الذقن الفزير . ويهجـم الحرس الوطني بالبنادق وقضبان الحديد ، والامريكـــان يكتبون في مكاتبهم المكيفة ، والارض الرملية تلقم ثدييهـــا الانابيب . .

وعلى الرصيف يجد الرفاق انفسهم ، ومشعان يطويه السجن ، ويختلط الحابل بالنابل ... ويختلط الحابـــل بالنابل ويختلط .. ويختلط .

* * *

افاق في المساء ، استحم ، ولبس بنطلونا وقميصا .

ومن جديد ، تسكع في الشـــوارع يحدق بالواجهـــات والسيارات الفارهة ، والاميرات اللواتي يتلفعن بالعباءات المقصبة ولا يبدو منهن سوى العيون السوداء المكحولـــة وأصابع الايدي ، مطلية الاظافر . وبين الحين والآخر يتركن أطراف العباءة تنحسر عن ثياب قصيرة .. والعطور فـــي الواجهات تغفو في قوارير ذات أحجام وأشكال . والمطاعم ذات اللافتات والاضواء الملونة تستقبل الناس بلا انقطاع .

أحس بالجوع .. أحس بالجوع والوحدة .

وحلم بكأس ، واستيقظ الثور في أعماقـــه مرات عديدة . وفجأة ، توقفت حركة السير في الشارع ، ومنع المارة من العبور . وبعد ان مر موكب رسمي ، عادت حركة السير الى طبيعتها ، فاشترى (سندويشة) وتوجه الـــى مكاتب الخطوط السعودية .

غاص في المقعد الاسفنجي المريح ، وأسند ظهره . اتى على (السندويشة) وشرب الماء المثلج . استدار عقـــرب الساعة دورتين ، فأغفى .. تنبه الى احدهم يهزه من كتفه:

ــ ايش تبي .

فتح عينيه فوجد الصالة خالية من الناس .

نهره الفراش بغلاظة :

ــ اذهب من هنا واياك ان تعود .

خرج وكان الطقس قد اخذ يصفو ويرق . عاد الـــى الفندق فأخبره الموظف ان ثمة من ينتظره على الكورنيش المقابل .

قطع الشارع الى الرصيف المقابل ، ومن جوف العتمة سمع صوته :

ــ اهلا .. ابو شنان .

مشعان .. مشعان .. ايها العزيز الذي يأتي مـــن الغيب .

اقترب الى دائرة الضوء . فبدا وجهه المعهود . العينان السوداوان ، والبشرة السمراء ، والشارب الطويل فوق الشفة السفلى الغليظة .

* * *

سارا جنبا الى جنب .. يبدو اكبر سنا ، وثمة آثار جرح كبير في رقبته وقميصه نصف الكم يبتل بالعرق تحت الابطين ، يتكلم بحيوية ، ويبتسم ، ويمسح انفه الطويل . ويتحدث . يذكر بعض الاصدقاء الذين ماتوا وهو في السجن، ويحكي عن الحديد السائل الذي يغلي في الافران، والدماء الحارة التي تسري في العروق ، والنظرات الحارقة التي تنصب من حدقات العيون ..

ــ الى اين ؟

ــ الى حارة السبيل .

ــ هل تسكن هناك يا مشعان ؟

ــ يسكن هناك العمال والاجراء والفقراء ومن ليس لديهم مأوى .

ــ ماذا تعمل ؟

ــ اعيد ترتيب الامور .

ــ اما انا فقد ..

ــ صه .. اعرف كل شيء ، في غياب النقابة يمكن ان يحدث كل ذلك .. المهم ان نبدأ صفحة جديدة .

كان القمر قد بدأ يطل ، ويملأ الصمت والسكينة والامواج القريبة تتقاذف الاوراق وبقع الزيت ونفايات السفن الراسية .

اطلقت باخرة صفاراتها مرات عديدة .

هتف مشعان : تبدأ الان رحلة جديدة .

وبعيدا .. عند آخر نقطة يدركها البصر ، كانت الامواج تبدو شديدة الزرقة .

شخصية ومؤلف

بقلم يحيى يخلف

كمال الغزاوي ·· انه يغفو هناك . في تلك الارض المنسية · انه ما زال ينام قريبا من اخدود نجران · هل استطيع أن أنساه ؟

انه يغفو ، ويخفق حبا ، وينبض حنينا ويحلم بالحرية للانسان ·

هناك · حيث الزمن العربي ينتمي الى القرون الوسطى ، وحيث بيوت التنك وسعف النخيل تشبه بيوت التنك في الكرنتينا · وحيث قسمات الانسان لاعربي هي القسمات نفسها للانسان في صبرا وشاتيلا ومخيم اليرموك هناك اذن ينام وحيدا · يرفرف طائر الشباب فوق الارض الرملية التي ينام في جفونها ؟

اورقت اشجار الاراك والخابور ثم ذبلت ، ومر شتاء ، وجاء ربيع ، ثم اورقت ·· ثم ذبلت ·· وطائر الشباب ما زال يرفرف ، نشطت نسائم نيسان ، ثم هبت رياح السموم ، وغضب امراء نجران ، وخرجت الجرذان والتيفوئيد والانيميا الى العراء ، وانتاب المعلقات العشر الرعب الخفي وظل طائر الشباب يحلـــق في الاعالي ، ويهبط من السماء الزرقاء هبوطا شراعيا ·

كمال الغزاوي ·· نجمة مجروحة ، وطير من طيور البجع مذبوح من الوريـــد الى الوريـــد ·

كمال الغزاوي هو طرفة بن العبد الفلسطيني المقتول في اراضي نجران ·

هل استطيع ان انساه ؟

سنوات طويلة مرت ، سنوات عجاف ، واحدة اكلت لحم الجزيرة العربية ، والثانية اكلت الشحم ، والثالثة اكلت العظم ، والرابعة شربت الدمع ، والخامسة أتت على الابتسامة ، والسادسة سرقت الفرح ، والسابعة ، والثامنة ·· والر..

ينبجس من سورة آل عمران وال سعود ·· ووحده طائر الشباب يحمل اشواق كمـال الغزاوي وعذاباتـــه ·

□

كان من المفروض ان يكون واحدا من ابطال روايتي (نجران تحت الصفر) ولكن ، عندما ، بدأت في الكتابة ، كان يهرب من بين السطور مثلما العصافير ، كان مهرا جامحا لا يمكن ترويضه لم استطع حشره بين عشرات الشخصيات ، فقد كان ذا كبرياء ونزق ·

وبعد ان اكملت الرواية ، ونشرتها ، ظللت اشعر بغياب هذه الشخصية التي افلتت من بين يدي · كان غيابه يشبه غياب النقاط عن الحروف · كان عنيدا مثل طرفه بن العبد ··

حمل رسالته ، ومضى في سبيله ·

□

مدينة (جده) في اواسط الصيف ·

الحرارة والدبق والرطوبة التي تلتصق بالجفون ·

كان الفندق الذي انزل به يشبه الطابون الذي يخبزون به الارغفة في بلادنا · ورغم ذلك ، فأجرته ثلاثة عشر ريالا لليلة الواحدة · وانا اعد الايام ، واعـــد النقود القليلة التي تتسرب ولا تستطيع ان تغطي اقامتي في هذه المدينة الكبيرة الى ان يحين موعد سفري بالطائرة الى نجران ·

في عمان ، وبعد ان خرجت من مقر بعثة المعارف السعودية موقعا العقد ، سألني معلم قديم جاء ليجدد عقده ويأخذ تأشيرة السفر :

ـ اين تم تعيينك ؟

قلت له : ـ في نجران ·

فارتسم على وجهه الاسى ، وقال بحزن :

ـ اذن ·· ستذهب الى آخر الدنيا ·

وقال آخر : اذا كان للارض قاع ، فقاع الارض نجران · لكن · لم يكن امامي اكثر من خيار ، فأنا بحاجة للعمل لاعالة اسرتي · كان الشاب الصغير اليافـع المتزمل في ثيابي يغذ السير في طريقه الى تحمل المسؤولية ، ويحلم بمذاق العرق المالح الذي ينز من جبينه ·

حين حملتني الطائرة من مطار عمان (كانت تلك هي المرة الاولى التي اركب بها طائرة) ، لم يكن في جيبي سوى ستة دنانير اردنية ، استدانتها امي مـــن جارتهـــا ·

وعندما حطت بنا الطائرة في مطار جده ، تخيلت انني سأنزل من طائرة الى طائرة اخرى ، وواصل السفر الى نجران ٠

قال مدير الحجز في المطار : لا مكان لك الا بعد عشرة ايام وقال صاحب الفندق الذي ذهبت اليه لاقضي الايام العشرة وهو ينظف اسنانه بالمسواك : تدفع كل ليلة ثلاثة عشر ريالا ، تدفع مقدما ٠ دفعت الريالات المطلوبة ، وصعدت الى غرفتي ، غرفة صغيرة ضيقة ٠ سرير علاه الصدأ وفوقه اغطية بيضاء قديمة ، وثمة دبور يطير من حائط الغرفة الى سقفها ٠ ومن النافذة يطل البحر الاحمر والميناء والسفن الراسية ورائحة الزنخ والنفايات ٠٠

دفعة واحدة ، احسست بالوحدة والغربة ٠٠ وبالرغبة في البكاء ٠

□

يتركون بصماتهم على الجدران ٠ يصبح الجدار صدرا يتسع لآلام مئات الاشخاص الذين يتركون الوطن ويعبرون برزخ الوهم ٠

لكن الجدار يظل جدارا ، ووحدها سيقان الاشجار تبقى المكان الذي نتفيأ في ظلاله الذكريات ٠

على جدران غرفتي بالفندق ، قرأت كلمات عشرات المعذبين الذين مروا من هنا ٠ كتبوا على الجدران شكاواهم والامهم بالحبر وقلم الرصاص ٠

لم يمح احد هذه الكلمات ، ولا حتى صاحب الفندق ، فتذكرت زنازين سجن المحطة بعمان ٠

ظللت مستيقظا طوال الليل ٠

وظلت الجدران تنغل بالكلمات ٠

□

في الصباح ٠٠ التقينا بالمطعم كان يجلس على طاولة في الزاوية يحدق في صحن فارغ ٠ عندما رفع رأسه لمحني ، وكنت لحظتها أبحث عن مكان ٠ اشار لي بيده ٠ جلست الى طاولته ، وسرعان ما تعارفنا ٠ كمال الغزاوي ٠٠ خريج كلية الزراعة من جامعة القاهرة ، تعاقد مع بعثة المعارف السعودية في عمان ، وتم تعيينه في منطقة نجران ايضا ٠

اذن ٠٠ ها هو صديق جديد ٠ ينتظر مثلي السفر الى نجران خلال عشرة ايام ٠

بعد الافطار ٠ خرجنا ٠٠ تسكعنا في شوارع جدة ٠ ضعنا في الشوارع الكبيرة وبين المتاجر والمحلات والواجهات الزجاجية ٠ عطور ، اميرات يتلفعن

بالعباءات ، ويتركن العباءة تنزلق بين الحين والآخر وتكشف الفساتين القصيرة او الاصابع البيضاء المطلية الاظافر · والرجال بالدشاديش ، والمسابح ، والمساويك ، ثم المآذن العالية ، القديمة والجديدة ، والسور القديم ، وحارة السبيل ، والشاطىء ، وفقراء المدينة ، وطريق مكة ، والمطاعم ورائحة الشواء·

ثم اخيرا ·· في المقهى · نشرب (الشاهي) وندخن النرجيلة · والان ·· جاء دور مراجعة نقودنا · بعد عملية حساب بسيطة ، اكتشفنا ان المبلغ الذي بحوزتنا لا يمكننا من المبيت في الفندق اكثر من ثلاثة ايام ، فقال كمال : قال لي احدهم ان المقاهي في جدة تتحول في الليل الى فنادق · وانهم يؤجرون المقعد الطويل بريالين فقط ، لم يكن هنالك مجال للتردد ، وسرعان ما نادينا على صاحب المقهى ، واتفقنا على المبيت في مقهاه ·

□

دفعنا الحساب لصاحب الفندق ، وابلغناه اننا نريد تأمين حقائبنا عنده · كان لا يزال يفرشي اسنانه بالمسواك · نظر الينا كما لو انه فهم كل شيء وفتح غرفة صغيرة بها بعض الحقائب وطلب منا ان ندخل حقائبنا · ثم قال :

ـ انظروا الى تلك الحقيبة الصفراء ·· لقد وضعها صاحبها هنا منذ سنة ونصف ولم يعد حتى الان ·· انه فلسطيني مثلكم ، فآمل ان تعودان · قال ذلك، ثم اغلق الباب على الحقائب ·

كان وجهه عابسا وباردا كما لو انه يغلق غرفة الاموات في مستشفى ·

□

اليوم الاول ·· تسكع ·· تسكع ·· تسكع الى ما لا نهاية · اصابنا التعب والارهاق والدوار · اكلنا صحن فول في الصباح · وبعد الظهر اشترينا ساندويشات · مساء ، جلسنا في المقهى بانتظار ذهاب الزبائن حتى ننام ·

الليلة الاولى نمنا مثلما ينام الاموات جاء صبي المقهى منذ الفجر ، وطلب منا ان نغسل وجوهنا ونخرج ·

ـ الى اين ؟

النهار طويل ·· طويل ، والحر شديد ، والرطوبة خانقة ·

قال صبي المقهى :

ـ اذهبا الى المسجد · هناك ماء وظل ومصاحف وكتب دينية ·

حين خرجنا ، كان الفجر حلوا ، وصوت المؤذن يملأ هذه السكينة بالوقار · فمشينا الى شاطىء البحر ·· وعلى طول الكورنيش كان عشرات من العمال (وجوههم تنتمي الى شتى الجنسيات) ينتظرون الاوتوبيس وسيارات الميكرو

باص . شعرنا بينهم لاول مرة ، بالالفة . كنت اتذكر فيهم اولئك العمال الذين يصطفون في الصباح امام الباصات في ساحة المسجد الكبير بعمان .

تناقشنا في اوضاع هؤلاء العمال ، كان كمال يحكي عن حركة عمالية ، وعن فائض القيمة ، مما اوحى بهويته السياسية التقدمية .

ويومها حكينا عن فلسطين ، وعبد الناصر ، وحرب اليمن .

□

كنا نترنح من التعب ، بعد العصر ، نجرجر ارجلنا على رصيف احد الاسواق القديمة ، عندما عبرت الى الرصيف المقابل امرأة اوروبية شقراء ومكشوفة الرأس . انها المرة الاولى التي نشاهد بها امرأة مثل النساء التي يراها المرء في شوارع عمان او بيروت ، فجميع النساء هنا يلبسن العباءات السوداء ويمشين في الشوارع كأنهن خيام سوداء متحركة . توقعت ان يستيقظ كمال ، وتدب فيه الحيوية ، ويحكي شيئا ويكف عن الصمت .

وفاجأني بقوله :

ـ انني افكر بصاحب الحقيبة الذي تركها منذ سنة ونصف ولم يعد .

ثم تساءل :

ـ ترى .. ماذا حدث له .. هل غرق في البحر ، ام داسته سيارة ؟

وبعد حين قال كأنما يخاطب نفسه .

ـ لعله مات من القهر .

في الليل . كان يعاني ، ظل ساهرا ، يدخن سجائر الكرافن او سجاير (بوبس) كما يسمونه هنا . او يقوم ويذرع ارض المقهى .

في الصباح ، كانت تعبر وجهه سحابة من القلق والاجهاد .

ومرة اخرى مشينا على كورنيش البحر ، نمشي بين طوابير العمال . ونحدق في السماء الزرقاء الصامتة .

قمنا بعملية حسابية ، واكتشفنا بان علينا ان نقتصد في الصرف . عندما مررنا ببائع الزلابية ، اشاح كمال بوجهه ولعابه يسيل . وذكرني بايام الدراسة في دار المعلمين برام الله ، عندما كنا نمر امام منتزه نعوم ، نشم رائحة (المسخن) ولا نستطيع ان نشتري .

عند العصر . قال لي : ـ تعبت كثيرا . لا استطيع ، اريد ان اعود الى بلدي .

ذكرته بالكلمات التي قرأناها على جدران الفندق ، لشباب مثلنا ، عبروا هذه المناطق ، ثم تعودوا على الغربة . زاغت عيناه . فرفعت يدي وتحسست جبينه كانت درجة حرارته مرتفعة . سرنا على مهل ، كان يعاني . لعلها ضربة شمس او ضربة جوع .. لا ادري .

في الليل ظل يهلوس ، وارتفعت حرارته اكثر فأكثر · وكنت اسهر الى جانبه انتظر الصباح ·

□

رق صاحب المقهى لحالنا · سمح لنا ان نبقى في الساحة الداخلية للمقهى حيث يتم اعداد الاراجيل · واقبل علينا عمال المقهى ، وغمرونا بالشاي والطعام كان ثلاثة منهم من نجد ، ورابع من صعدة في اليمن الشمالي · كانوا عراة الا من (الوزرة) التي يلفونها على خصورهم النحيلة ويخفون بها عوراتهم ، ولا يتوقفون عن العمل وصنع الشاي وتعمير الاراجيل · في المساء اصروا جميعا ان يستضيفوننا ، ذهبنا معهم الى حي السبيل ، ركبنا في الميكروباص · ثم مشينا مسافة طويلة الى ان كلت اقدامنا ، وظل كمال يتحامل على نفسه ·

وصلنا بيوت الصفيح والتنك في ضواحي جدة بيوت تستند على بعضها البعض ، كأنما تتعانق أحاسيسها الدافئة · تكتظ بالشغيلة والاطفال وحبال الغسيل المثقلة بالملابس والملاقط · ولم يكن الامر يخلو من رائحة المجاري · كان رفاقنا يسكنون في بيت من التنك يتكون من غرفة واحدة واسعة ، مفروشة ببساط يماني مشغول باليد ·

اشعل احدهم (الاتريك) (١) ، بدلا من السراج الذي كانت ذبالته في غاية اليأس ، فأضاءت الغرفة وسطعت اكلنا وشربنا وابتسم كمال كأنما استرد كامل عافيته ·

ثم اخذ احدهم يغني تلك الاغاني العربية العذبة التي تتشوق الى الصحراء والنخيل والحرب وقام الثاني فرقص رقصة للسيوف ، وثانية للخناجر ، وثالثة للوفاء والكرم ·

وعبر النافذة ، كانت تأتي اصوات الطبول والدفوف · انهم يغنون ويرقصون انهم يطردون التعب والقهر والاضطهاد من ابدانهم لكي يتسنى لهم نومة تغمض فيها الجفون ·

آخر الليل ·· وقبل ان ننام جاء رجل هام · هكذا شعرنا ، فلدى دخوله وقف العمال الاربعة واقبلوا عليه بلهفة · لا ادري لماذا شعرت بالارتياح لمرآه · كانت ملامحه عربية ·· عربية للغاية · وفي عينيه كانت اسرار الربع الخالي · ملامحه كانت كلمة السر لوجه نبي ·

لن اطيل عليكم · لقد كان هذا الرجل ·· هو مشعان ·

---

(١) الاتريك ··· الفانوس او اللوكس كما يسمونه عندنا ·

رأينا مشعان مرة ثانية قبل ان نغادر جده الى نجران · قابلناه بالصدفة في مكتب الخطوط الجوية السعودية · جئنا نسأل موظف الحجز ان كان بمفرده ان يقدم موعد سفرنا ، وجاء مشعان ليحجز مقعدا على الطائرة المسافرة الى الدمام ·

كان عمال المقهى قد حكوا عنه كقائد نقابي ، قاد انتفاضة عمالية ضد الاميركان والحكومة في المنطقة الشرقية ، والقي عليه القبض ، وسجن لمدة سبع سنوات ، منها سنة كاملة في سرداب تحت الارض ·

عندما لمحنا ، حيانا بنظرة من عينيه ، ثم ادار وجهه الى ناحية اخرى فعرفنا انه مراقب من (العسس) · ابلغنا موظف الحجز ان علينا ان ننتظر ، فلربما استطاع مساعدتنا في نهاية الدوام ·

المكتب مكيف ، والماء المثلج متوفر ، فابتسم كمال ، وقال : وماذا وراءنا ·· ننتظر ونتمتع بالهواء البارد · وفي نهاية الدوام ، قال لنا الموظف : انه لا يستطيع تقديم موعد سفرنا ·

خرجنا الى الحرارة والدبق ·

قلت لكمال فجأة : هناك صديق لي يعمل في نجران ، ما رأيك لو ارسلنا له برقية ليستقبلنا في المطار ففكر قليلا ، وبعد ان عد الريالات التي بحوزتنا ، وافق ، على ان نأكل وجبتين فقط في كل يوم من الايام الخمسة الباقية ·

□

حكى لنا عامل المقهى اليمني عن الحرب الشرسة في الجنوب ، وعن رجال الكوماندوس الجمهوريين الذين قبض عليهم في الرياض ، وفصلت رقابهم بالسيف عن اجسادهم ·

حكى وهو يرتجف ··· كان الرعب الخفي يسكن عينيه · تحدث معه كمال ، واعاد له الطمأنينة · كمال يتحدث بطلاقة ، ويتمتع بثقافة سياسية عالية· ثم مازحه ، وانتقل به من حديث الى حديث ، وانضم بقية العمال في استراحة الظهيرة ، وحكوا قصصا لا تحصى عن الاميرات ·

وحكى اليمني قصته عن اميرة احبت أحد المدرسين ، واستدرجته الى قصرها ، وسجنته في واحدة من غرف القصر ، وجعلت عليه عشرة من الخصيان يحرسون غرفته · وفي كل ليلة كانت تتمتع بجسده · وظلت تمتص رحيق الجسد والشهوة الى ان ادركها السأم · وعندها ، اسقته مخدرا ، وامرت احد خصيانها فضرب رأسه بالسيف ، والقى بجثته في اعماق بئر مظلم ·

ثم شربنا الشاي الغامق ، واكلنا العصيدة المصنوعة من السمن والطحين · وظل رفاقنا يتحدثون عن الاميرات ···

كانت ليلة طويلة ، فيها ما يشبه الاساطير ٠

□

قبل السفر بيوم واحد ، قال لنا موظف الخطوط الجوية بانه يتعين علينا ان نحصل على تصريح دخول الى نجران من منصور الشعيبي ٠ وعندما استفسر كمال عمن يكون منصور الشعيبي هذا ، اجاب الموظف بانه قائد منطقة جده ٠ على الرصيف ، وقفنا نسأل عن منطقة جده ٠ فقالوا بان علينا ان نمشي مسافة سبعة كيلومترات ٠ لم نكن نملك اجرة سيارة ، فقررنا ان نمشي ٠ كانت الشمس تسطع ، وجده تشتعل من جميع اطرافها ، والرطوبة الخانقة تتسلل الى البدن ، وتلتصق بالملابس ، والعمارات العالية ، تظهر من خلال الحدقات الذابلة كالغبش ، وتعبر ، الدراجات ، وسيارات الكاديلاك ، وواجهات الملابس والعطور ، وواجهات الخواتم والاحجار الكريمة ، والسجاجيد العجمية ، والعقل المقصبة ، ومخلوقات كليلة ودمنة ، وكمال مثل مالك الحزين يمشي ويخوض في الزمن المر ٠

□

ليلة السفر لم ننم ٠ حلقنا ، وغسلنا ملابسنا ، واحتفل بنا رفاقنا العمال فطبخوا (كبسة رز) بالصلصة والبهار الحار ٠ واستعار احدهم دراجة نارية (يطلقون عليها اسم دباب) وذهب معي الى الفندق لاحضار الحقائب ٠

استقبلني صاحب الفندق الذي يبدو كما لو انه خلق هنا ، فلا يغادر مكانه ، وسألني ان كنت قد قضيت الايام في احد المقاهي ، وضحك ضحكة خبيثة ، توحي بانه يعرف انني مفلس وليس بحوزتي نقود تكفي للاقامة في فندقه ٠

لم ارد عليه بكلمة واحدة ، فاستدار الى غرفة الامانات ، وفتح بابها ٠ كانت مظلمة كغرفة الاموات ٠ تعبق بالرطوبة ورائحة الجلد او رائحة الاحذية ٠

سحب حقائبنا ٠

لمحت تلك الحقيبة الصفراء التي ذهب صاحبها ذات يوم ، ولم يعد ٠ كانت تختنق بالصمت والخواء ٠ وعندما عدنا ، كان كمال لا يزال مستيقظا ، وكان الاخرون يغطون في النوم ٠ اما (الاتريك) فقد كان يشع ويتوهج ٠

ادخلنا الحقائب ، ولعل كمال اراد ان يسألني عن تلك الحقيبة الصفراء ٠ الا انه لم يفعل ٠ وهربت من نظراته الى التحديق بسقف التنك المطلي بالجير الابيض ٠

ومن النافذة ٠ كانت السماء مضاءة ، ومن بعيد يأتي صفير السفن الراسية تعلن عن الوصول او الاقلاع ٠

والان ·· دفعنا اخر ما نملك ، واصبحنا داخل مطار جده الدولي ، عبرنا قاعة الرحلات الداخلية · اخذوا منا تصريح منصور الشعيبي ، وثمن الطوابع وبعض الرسوم الاخرى ، واصبحنا في قاعة المغادرة · ننظر الى العصير الذي يتدفق من وراء الزجاج كالنافورة في الكافتيريا ، دون ان نستطيع الشراء لكي نبل ريقنا ·

جلسنا على الكراسي الانيقة نحدق بالوجوه الشرسة وبالخيام المتحركة التي تقبع تحتها اجساد النساء · اعلن الميكرفون بان علينا ان نتوجه من باب الخروج الى سلم الطائرة ·

بين الطائرات الضخمة ، كانت طائرتنا تجثم كانها تعبة من لعب الاطفال · انها طائرة صغيرة ، من نوع (كونفير) لا تتسع لاكثر من عشرين راكبا ·

دخلنا ، ودخل الرجال الذين يحملون على كروشهم الجنابي اليمانية الحادة ونظارات (البيرسول) التي تميزهم عن الرعاع !! اما الحريم ، ففي المقاعد الخلفية ··

قال المضيف الذي يلبس قميصا ابيض بنصف كم ويبدو وسيما رغم كل شيء · بان علينا ان نربط الاحزمة · وبعد قليل ، مشت الطائرة على المدرج ·· ثم شالت بنا ، واخذت تعلو ·· ثم اوغلت فوق الجبال الجنوبية الجرداء · واصبحت مثل ريشة الطائرة تتقاذفها الرياح ، وتهزها بعنف المطبات الهوائية ·

قال رجل يجلس قربنا ، ويحمل بين يديه صندوقا مثل ذلك الذي تحفظ به المجوهرات في فيلم لص بغداد :

ـ هناك سقطت طائرة بن لادن · (بن لادن) ، هو متعهد خرافي اذا ما قيس بعثمان احمد عثمان ، ويقال بأنه تزوج عددا لا يحصى من النساء ، وانه لم يكن يستطيع حصر عدد اولاده !!

فأغمض كمال عينيه ، ونفر الشحوب في وجهه ·

قلت امازحه :

ـ هنيئا لك يا من تقف على الارض ·

فحدق كمال ، عبر نافذة الطائرة الى رؤوس الجبال السوداء المسننة ، والى التضاريس العابسة · وقال كما لو انه يخاطب نفسه .

ـ لا احب ان اموت هنا ·

كان يحكي عن الموت وكأنه واقع لا محالة · حاولت ان اذكره بالايام الجميلة التي لم تأت بعد ، الا انه ·

عاد يقول : جميل ان يموت المرء بينما اهله واحب الناس اليه يلقون عليه النظرة الاخيرة ·

وبعد حين ، بدأ يتقيأ ، ولفت ذلك نظر ركاب الطائرة · جاء المضيف بأكياس النايلون · سألته ان كان لديه بعض الدواء ، فنفى ·

وعند ذلك ، اسند رأسه الى المقعد ، واغمض جفنيه ٠

□

ارتطمت العجلات بأرضية المدرج ، ومن وراء زجاج النافذة كانت الصحراء ، والنباتات الشوكية ، والفضاء المدهش ٠ والطائرة تمشي تحت شمس ساطعة ، وتنكمش تحتها الاشياء والاكواخ والكائنات الزاحفة ٠

هنا نجران ٠ قال المضيف ٠ اهلا بكم في نجران ٠ قال ضابط المخابرات ٠

هل تحملون اشياء ممنوعة ؟ سأل موظف الجمرك ٠ انتما مدرسان ٠٠ اليس كذلك ؟ قال ضابط المخابرات ٠ ونظر الى جواز السفر ٠ ثم اردف : هذه المدينة تشهد حربا طاحنة ٠ هذه المدينة مخيفة وذات اسنان حادة ٠ من اراد ان يأكل خبزا عليه ان لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم ٠ كان الاعياء يتفجر في العروق ٠ كان كمال مثل ورقة الكربون التي طبعوا عليها عشرات النسخ ٠

كنت مثل قطعة الاسفنج ، امتص العرق والسأم والامتعاض ٠ ومن وراء السياج لم نجد احدا بانتظارنا ٠

قال كمال : اين قريبك الذي ارسلنا له البرقية ٠٠ انه لا ينتظرنا ٠

السراب المعتق ما زال يطفو فوق هذه الارض العربية ، وفي باطنها يفور الزيت ويغلي ، وينتظر لحظة الانبجاس !! لم يكن ثمة من ينتظرنا ٠

ركبنا واحدة من سيارات الاجرة ، ودفع كمال خاتمه الذهبي (دبلة الخطوبة) الذي كان يحمله في اصبعه ٠ وعندما استطعنا اخيرا ان نصل الى مكتب التعليم ، ونقابل قريبي ، عرفنا ان البرقية التي ارسلناها من جده لم تصل ٠ ولكنها وصلت بعد ذلك بثلاثة اسابيع !!٠

□

عملنا في المدرسة المتوسطة (الاعدادية) ، التي تقع في شارع الزيود والقريبة من مكتب (المفوضية المتوكلية اليمنية) ٠

هنا عالم خرافي لا يمت الى جده وعماراتها العالية وسياراتها واميراتها ٠ هنا عالم ينتمي الى القرون الوسطى ٠ التجار والسماسرة ، وقوات الامام ، والمرتزقة ، والمطاوعة ، والغلمان ، والنساء المضطهدات ، وحارة العبيد ٠

في الساحة الواسعة التي تتحول الى سوق مرة في الاسبوع ، يجري اعدام المحكومين ، وجلد الذين يشربون الكحول ، ورجم النساء الزانيات ٠

وعلى امتداد شارع الزيود تزدهر تجارة الاسلحة ، المسدسات والرشاشات والقنابل اليدوية ، والمعارك اليومية لا تتوقف بين قوات الامام والقوات الجمهورية ٠

والمرتزقة يمشون وسط الشوارع بالسراويل القصيرة وسيارات الجيب · وسكان حارة العبيد لا يجدون الرغيف ، وتكسد بضائعهم المكونة من الفجل القصب وبعض البقول البرية · والعسس (المخابرات) يأخذون الناس بالشبهة· والرعب الخفي يملأ فجوات الابواب وشقوق النوافذ · والطائرات تذرع الفضاء المرعب · وجمعية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر لها سلطة محاكم التفتيش · والزبال (عباجه) يحمل فضلات المدينة في عربته ويلقيها في الخلاء ، فيهجم عليها الاطفال والدبابير والجرذان والطيور الجارحة · وجنود الامام يمضغون القات ويشربون الويسكي دون ان يعاقبهم احد · ومشوهو الحرب ينغلون في شوارع المدينة كالديدان ، وفي المدرسة ، كنا نعلم الاولاد كيف يكتبون بالحرف العربي على لوح العصر ··· لوح القرن العشرين ·

□

اجل هذه نجران · بيوت وازقة ، وشوارع ترابية ، ورمال وراء الافق ، واعداد لا تحصى من الرجال العسس · ساحة واسعة يجلد فيها المذنبون او تفصل رؤوسهم عن اجسادهم ، وايام الجمعة من كل اسبوع تصبح سوقا من اسواق القرون الوسطى ·

الوجوه كانها منحوتة من الصخر ، ومثل النار الكامنة في الحجر تكمن في القلوب اشواق العبور من القرون الوسطى الى القرن العشرين · مطاوعة من جمعية (الامر بالمعروف والنهي عن المنكر) يذرعون الشوارع التي تعج بالمسلحين والزيود والعسس وباعة المقلقل والفول والوجهاء من الزيود ، والنساء اللاتي يتلفعن بالعباءات السوداء ·

التجار والامراء يتزوجون من أربع ، واحلامهم في اقتناص العلمان ليس لها حدود · والمساويك لها رائحة الاراك ، ومكتب (بو طالب) في المفوضية المتوكلية اليمانية يتسع للزيود وللمرتزقة ولذوي العاهات ·

تشرق الشمس على اصوات القصف ، والمعارك في الجبال تعطي الرعب الجثث والجرحى والمشوهين · هنا ساحة من ساحات المعركة التي تدور ما بين الملكيين والجمهوريين ·

من هذا الجانب تتحرك الثورة المضادة ، ولا تتوقف سيارات المرتزقة والمدافع المحمولة عن المرور من امام المدرسة التي نعمل بها ·

يقول كمال وهو يبصق : انها معركة الرجعية ضد التقدم · واحيانا ،من على سطح بيتنا المبني من الطين ، ينظر كمال الى جبال (صعده) في اعالي الافق ، تطير من عينية عصافير الاشواق · ويقول :

ـ ذات يوم سوف اتسلل عبر الحدود ، واصل الى تلك المرتفعات واقاتل مع الجمهوريين ·· يجب ان تنتصر الثورة ·

ذات يوم جاء شخص غامض واجتمع بالهيئة التدريسية قدمه المدير لنا على انه (المستر) · كان رجلا يناهز الاربعين ، يلبس ثوبا عربيا ، ويلف رأسه بحطة بيضاء ، ويضع على عينيه نظارة سوداء · وكان يبدو بلحيته الشقراء مثل لورنس او غيره من الجواسيس البريطانيين · وقال لنا (المستر) انه مكلف من الامير بشرح الاحداث الجارية في المنطقة والاجابة عن استفساراتنا ·

كان المستر يرحب بنا بلغة عربية فصيحة · انه واحد من رجال الامن الاميركيين الذين كنا نسمع بهم ولا نراهم ·

نظرت الى كمال كان يدور في ذهنه ، الخواطر نفسها التي دارت في ذهني · وفي وقت واحد ، وقفنا ، ووجهنا الكلام الى مدير المدرسة :

– لا نريد ان نسمع ·

□

في وقت لاحق ، استلمنا انذارا من مدير التعليم وحظينا بدعوة من مدير العسس في نجران !!

□

عشنا الظروف الصعبة · شربنا الماء المزوج بالرمل والميكروبات . واكلنا اللحم المعلب . وانتظرنا عبثا وصول الرسائل من ذوينا ·

شاهدنا الطائرات الحربية التي تتقاتل في الجو ، وتساقطت حول المدينة القذائف من عيار الف باوند · وفي الساحة الواسعة تم اعدام (اليامي) بالسيف ، وأصاب نصل السيف لحم الرقبة ·

وظل الزيود يمضغون القات في شارع الزيود ويلعبون بالريالات الذهبية ويتاجرون بالاسلحة ·

□

الشوارع تخلو باكرا من المارة ، ونقضي معظم سهراتنا مع بعض المدرسين في مطعم رأفت ، ذاك الشاب الفلسطيني الذي فقد احدى عينيه اثناء العدوان الثلاثي عام ٥٦ عندما كان صبيا يقطن مخيم الشاطىء في غزة ·

نأكل الفلافل (هو الوحيد الذي يتقن صنع الفلافل في نجران) ونتحدث في اخبار الحرب او نستمع الى اذاعة صنعاء بعد تخفيض الصوت ·

اذكر تلك الامسية ، عندما جاء ثلاثة من العسس واقتادوا رأفت الى السجن. وسط دهشتنا · لقد كان رأفت يصمت طوال الوقت ، وقلما كان يتكلم · ولم

يكن يعنى مباشرة بالقضايا السياسية · وفيما بعد عرفنا سبب اعتقاله ·
كان قد اوصى احد اقاربه في جده لكي يشتري له بعض القوالب التي يصنع بها الفلافل ، ولما تأخر ، ارسل له برقية يقول فيها (ارجو ان ترسل لي القوالب) ولسوء حظه ، فان عامل اللاسلكي في البريد الذي كان يمضغ القات بلا توقف ، ارسل نص البرقية كالتالي : (ارجو ان ترسل لي القنابل) · وشتان ما بين القوالب · والقنابل · نقذ اخذوا رأفت في ذلك اليوم ولم يعد · اعتقلوه وحققوا معه ، ثم اصدروا امرا بطرده وتسفيره ·

□

قال لي كمال : في هذه المدينة يريدون منا اما ان نصبح كلابا واما ان تنهار اعصابنا ·

وقال ايضا : سنقاومهم · ان التخلف في نجران واحد من اسباب الهزيمة في فلسطين ، والطريق الى فلسطين يجب ان تكنس التخلف في نجران ·

واضاف كذلك : سوف اتكلم بشجاعة للتلاميذ واحكي لهم عن كل شيء · سأصحح لهم المعلومات التي يقنعهم بها (المستر) ·

□

كمال لم يصمت · لم يغمض عينيه ، ويصم اذنيه كما ارادوا ··· كمال حكى · وتكلم · وشاهد طوابير الفقراء في زمن النفط · كمال شاهد الارض العربية مكبلة بأنابيب النفط الاميركية ، بينما حدقات الاطفال مكبلة بالدهشة والجزع والجوع · كمال شاهد الحرب القذرة التي يخوضها الامام المخلوع بينما هناك في الجانب الاخر ، في الجمهورية تتفتح في تربة الثورة مليون زهرة ·

كمال ، قال للتلاميذ : لكي نخرج من عصر الانحطاط يجب ان تنتصر الثورة في اليمن ·

جاء العسس ، واقتادوا كمال الى السجن · حققوا معه · جاءوا وفتشوا حقائبه واوراقه · وبعد اسبوع ، افرجوا عنه ، واصدروا قرارا تأديبيا بنقله من نجران الى قرية على الحدود ·· قريبا من ساحة الحرب ·

□

لقد استدعي كمال ذات يوم للتحقيق معه · قابل عدة ضباط ، وانتظر ساعات طويلة · عبأ استمارة ، والتقطت له عدة صور · واخيرا قابل المحقق الذي وجه اليه عشرات الاسئلة ، وجعله يكتب قصة حياته ·

وفي اخر النهار ، شتموه ، واطلقوا سراحه · جاء كمال غاضبا ومبلــــولا بالعرق ·

كان غاضبا ومقهورا وتكمن في قلبه النيران الكامنة في حجارة الصوان · دخن سيجارة قبل ان يتكلم ، وعندما حكى لم يستطع ان يتم كلامه ·

وبدلا من ان يبكي ، عمد الى الحقيبة ، فانزلها من على الخزانة ، واخـــذ يطوي ثيابه ·

ـ هل ترحل ؟

قلت له · فأجاب :

ـ سأغادر غدا · سأقدم استقالتي واعود · وفي اليوم التالي ، رفض مدير التعليم استقالته · وفضلا عن ذلك ، فقد صدر قرار بنقله الى قرية نائية · كانت الحقيبة الكبيرة ·· الحقيبة الصفراء جاهزة · ولم ادر لم خطر لنا ، وبوقـــت واحد ، ان وجه شبه يجمع ما بين هذه الحقيبة ، وتلك التي تركها فلسطينـــي ذات يوم في غرفة الامانات بالفندق ، ثم لم يعد · جاء الاصدقاء من المدرسيـــن العرب ، وسهروا حتى الصباح · وظل كمال يحتفظ بتقطيبة لـــم تستطـــع ان تمحوها كل دعابات الاصدقاء ·

في الصباح · جاءت سيارة ، حملته وحملت حقيبته ، وكانت تلك هي المـــرة الاخيرة التي رأيته فيها · اذ ازدادت المعارك عنفا ، واصبحت المنطقة تتعرض لعمليات قصف مدفعي ، واغارات جوية · وبعد سفره باسبوع واحد جاء خبـــر وفاته · وفيما بعد ، سمعت روايات عدة عن طريقة موته ·· لكن الروايـــــات كلها اجمعت على انه مات بطريق الخطأ ·

لقد جاءت الطائرات الجمهورية ، وقصفت قواعد المرتزقة علـــى الحدود ، واثناء ذلك كان كمال في مدرسة القرية الحدودية النائية القريبة من مواقـــع القصف ، فأغلق المدرسة ، وطلب من التلاميذ العودة الى بيوتهم ·

وعندما كان يسير متوجها الى بيته ، برزت احدى الطائرات فحسبته احـــد المرتزقة (اهالي المنطقة يلبسون الثوب العربي وكمال كان يلبس قميصـــــا وبنطالا) ·

استدارت الطائرة دورة كاملة في الجو ، يقول شهود العيان ، فخلع كمـــال قميصه الابيض (لا بد انه توقع ما يجول بخاطر قائد الطائرة) ، ولوح بالقميص ليعلن للطيار انه صديق · لكن الطائرة غاصت عليه دفعة واحدة ، واطلقـــت صاروخا شطر جسد كمال الى شطرين ·

لقد قتل برصاص صديق ولكن بطريق الخطأ !!

□

كمال استشهد بطريق الخطأ · لقد انقضى الزمن الـذي كان فيـه الفلسطيني يقتل بطريق الخطأ ·

في احلك اللحظات التي واجهتها فيما بعد اثناء عملي بالمقاومة ظللت اتذكر كمال ، واحزن · واحيانا ، كنت أحسده ·

لقد مات بطريق الخطأ ·

وفيما بعد ، صار القتل عمدا ·· واصرارا ، واستشهد عشرات الرفاق فوق ساحات المدن العربية ·

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Zeth_Griffin

June 2009

Zeth_Griffin@yahoo.com

Zeth_Griffin